المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الواحد بعد المائة

١ نوفمبر سنة ١٩٤٢ — ٢٢ شوال سنة ١٣٦١

العلم

بين النظم الدكتاتورية والديمقراطية (١)

العلم والديمقراطية ، قوّتان رئيستان من قوى العصر الحديث وهما ابداً قوتان متفاعلتان فالعلم ونتاجه النظري وتطبيقهُ العمليّ يتيح للديمقراطية ، العناصرَ التي توسّع من نطاقها وترسّخ من اركانها وتعمّم من نعمها . والديمقراطية ، تهيئ للعلم التربة والجوّ اللذين يركز فيهما غرسهُ وينضر وردهُ وينضج ثمرهُ . اما العلم والدكتاتورية فقوتان أبداً متنافيتان ، فهي تتخذ من نتاج العلم أداة لتقييد العلم وكتم أنفاسهِ وهو يأبى القيد وإما ان يهجر الأرض التي يلقاه فيها واما ان ينحني ويرزح تحت عبئهِ ثم يذوي ولا يتنعش الا بعد مشقة ولمهلٍ طويل. وقد عنى كاتب اجتماعي ايطالي كبير ، من نحو عشر سنوات بتصنيف كتاب ، عنوانهُ « امتحان الدكتاتورية » وطلب الى طائفة من كبار الكتّاب ان يكتبوا فصوله ، وهي عشرون فصلاً او تزيد ، فكتب اندريه موروي ، فصلاً في « الدكتاتورية والرجل العظيم » واميل فندرفلد الاشتراكي البلجيكي فصلاً في « الاشتراكيين والدكتاتورية » ووتر فون مولو رئيس الاكاديمية الالمانية في « الدكتاتورية والذهن الالماني » وحولياو فريرو المؤرخ الشهير من عهد قريب في « الدكتاتورية في

---

(١) الجانب الاول من محاضرة لرئيس تحرير المقتطف

روما القديمة » وسائر الفصول على هذا النمط . وهي تتفاوت طولاً من خمس صفحات الى ثلاثين صفحة او أربعين . وطلب المصنف الى العلامة البرت اينشتين ، أن يكتب فصلاً في «العلم والدكتاتورية» فكتب فصلاً في عبارتين اثنتين ولم يزد . قال : « الدكتاتورية تعني كمّ العقول والافواه فالطاقة الصور والهدم . واما العلم فلا يزدهر الاّ في جوّ من الحرية » . وقول اينشتين ، فيه فصل الخطاب . لا لانه اينشتين ، ولكن لأن اينشتين لخص في عبارتيه حكمة أيدتها دهور متوالية من تاريخ الارتقاء الانساني

ذلك بأن نواة الصلة بين العلم والدكتاتورية من جهة ، ثم بين العلم والديمقراطية من جهة اخرى . هي صورة الحرية ومنزلتها في الاجتماع البشري — في ارتقائه الفكري وفي تطوّر نظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية جميعاً

العلم والحرية

لست أعرف انقلاباً في العصر الحديث ، أعظم شأناً ، وأبعد أثراً في الحضارة والحياة ، من الانقلاب الاجتماعي الذي أساسه تطبيق قواعد العلوم الطبيعية على مقتضيات العمران . فقد سيطر الانسان بالعلم على مائلة غير يسيرة من عناصر الطبيعة وقواها ، واستخدمها في قضاء مآربه ، فتضاعفت قوته ، وزادت سلطات فراغه ، واتسعت قدرته على الانتاج . وقواعد العلوم الطبيعية واستعمالاته له تدخل في كل كبيرة وصغيرة من حياتنا سواء أفردية كانت ام قومية ام دولية . وقد أصبح المهندسون من جهة والكيميائيون من جهة أخرى في منزلة مبدعين . يبارون الطبيعة في استحداث كل عجيب مفيد . انهم صيّروا الأرض كالكرة التي يلهو بها الطفل ، بما استفادوه من وسائل المواصلات والمخاطبات السريعة

فاليوم أنطق ما تكون رسالة ان نطقت عاجمها بريش القشعم
حمل أتوكنك الفضاء يؤدّها شرواً الى أقصى مدًى متيمّم
فتخوّ بالقطبين طرسٌ دائرٌ والبرق أسرع ما ترى من مرقم (١)

كلّ هذا وغيره كثير جديد ، يعود تاريخه الى مختتم القرن الماضي . والرجّح ان بين الاحياء الآن كثيرين ما فتئوا يذكرون الهندسة الكهربية وأربابها وهم يحاولون اثبات وجودهم في العقد الثامن من القرن الماضي . او يذكرون الانباء الاولى عن التلفون وكيف قوبلت بالاعراض والريب ، حتى وليم طمسن ، مشهور اللورد كلفن ، أعجب وعجب حين رأى التلفون حقيقة واقعة يراها ويسمعها بعدما تناهى اليه خبرها . ان هذه

(١) من قصيدة طويلة مطولة في الاختراع يكشف الستار عن تمثال للمخترع للشيخ ابراهيم اليازجي

الاطفال العلمية — اذا استعملنا لفظ فرادي في وصف هذه المستنبطات الجديدة — نمت واشتد ساعدها ، فزادت سيطرة الانسان على الطبيعة سيطرة وقوة ، فهو اطول عمراً ، نتيجة لهذه البحوث والكشوف ، وأوفر راحة وأوسع علماً ، وأعظم قدرة على الانتاج . وعلى الرغم من هذا الصراع الرهيب ، أقول إنه أفهم لضرورة السلام والتعاون

ولكن هذه المخترعات والمستنبطات ، التي نطلق عليها غالباً صفة « العلم » ليست في الواقع إلا ثمر شجرة « العلم » ، ومع أن الثمر يانع ، فلا كيان له بغير الشجرة ، ومع ان الشجرة حاية ، وجذورها ممتدة في تربة تغذيها وتمدها بعناصر الحياة ، فكيان الشجرة نفسها ، متصل بهذه التربة ، فاذا جفت ونزعت منها العناصر التي تتقوم بها حياة الشجرة تمشى اليبس في جذعها وغصونها ، وسرى الذبول والذواء في ورقها وزهرها وثمرها . والتربة التي انتشرت فيها جذور شجرة العلم هي تربة « الاسلوب العلمي » وعنصر الحياة الأول في هذه التربة ، هو حرية البحث ومما تنطوي عليه من حريات أخرى ، كحرية النشر ، وحرية تبادل النتائج العلمية مع طوائف العلماء في كل مكان . انما العلم مذكراته

ولعل أعظم خدمة أسداها العلم ، وأمجد أثر تركه في حياة البشر العقلية والاجتماعية ، يتلخصان في عبارة واحدة : هي كشف الاسلوب العلمي . وليس ثمة ظل من الشك — على قول العلامة مليكن — في أن المعنى الخاص بعصرنا والصفة المميزة لحضارتنا عن كل حضارة سبقت ، انما هي كشف الاسلوب العلمي ، والنتائج التي أسفر عنها تطبيقه

هذا الكشف لم يتم في عصرنا ، ولكن آثاره المتجمعة لم تبد دانية القطوف ، جلية الاثر ، إلا في النصف الاخير من القرن الماضي وما انقضى من هذا القرن . فما هو الاسلوب العلمي ، الذي نشير اليه ، وما سر الطريقة التي جرى عليها غليليو في القرن السابع عشر ، فأفضت الى ما يسميه الفيلسوف هوايتهد ، بأنه أعظم انقلاب حدث في نظر البشر في الكون والحياة

يقوم هذا الاسلوب على المبدإ التالي : — في البحث عن الحقيقة ، لا تبدأ مسلمات أو نظم فلسفية كما فعل فلاسفة الاقدمين على اختلاف مذاهبهم . ثم لا تعتمد الاقوال المستنبطة من مجرد التأمل في النفس ، وهو الطريق الذي جرى عليه أئمة الفلسفة المدرسية ، عندما كان المعلمون الأول من طراز أرسطو المرجع الاخير ، يقاس كل قول جديد بما قالوا ، ويمتحن كل مستنبط من الرأي بما طوروه بين دفات مؤلفاتهم . فالتجريب هو المعتمد في الاسلوب العلمي ، هو محكمة الحقائق التي لا ترتبط ارتباطاً معيناً بفلسفة ما . قد يستعين العلماء الجاريون على هذا الاسلوب بطريقة الاستنتاج من مسلمات معينة في مراحل معينة من البحث .

ووضع النظريات ، وتبديلها بين الحين والحين ، لا لمصلحة علمية لتعليل الحقائق الناشئة . ولكن التجربة هي الصفة الأساسية والمرجع الأخير . والقرار نتيجتها ، لا يتمّ إلاّ اذا أعادت مراراً في كل مكان يبدو للباحث أن يعيدها ، وإلاّ لقد أسفرت في كل مرة عن النتيجة نفسها ، كائناً من كان المجرّب الاول ، ومنزلته بين علماء القوم وأعمالهم

هذه هي التربة ، التي تنمو فيها الشجرة التي نصفها عادةً بشجرة العلم . والبحث العلمي الجاري على هذا الاسلوب ، غايته توسيع نطاق المعرفة بكشف نواميس الطبيعة والحياة ، بغير نظر الى ما يحتمل في المستقبل من تطبيق عمليّ . فكلارك مكسويل ، لم يفكر في عجائب الراديو المتنوّعة ، عند ما استخرج المعادلات ، التي أثبت بها وجود أمواج غير منظورة تشبه أشعة الضوء في النواحي التي تخضع لها . وعند ما أقبل هرتز على معادلات مكسويل ، وحاول إثبات صحتها ، أو خطأها بالتجريب ، لم يكن يفكّر في عجائب الراديو . ولكنهُ أثبت وجود الأمواج ، فكان الثمر اليانع ، في التلغراف اللاسلكي ، والتلفون اللاسلكي ، والراديو ، ونقل الصور والمرئيات بهذه الأمواج الخفية

ان سرّ الحياة في هذه التربة ، ان قوام هذا الاسلوب ، هو حرية البحث . فالباحث الذي تمشّهُ غوامض الحياة ، وتوحي اليهِ أسرار الطبيعة بأمرٍ خفيّ ، ويكون ذهنهُ مهيّأً ، عليهِ أن ينطلق خفيفاً من كل قيد ، الى حيث يقودهُ البحث . فاذا قال لهُ البحث ، في العظم والدم والأحافير ، ان الانسان ، يمتّ بصلات كثيرة الى طوائف الحيوانات التي هي دونهُ ، فعليهِ أن يخضع للدليل ، ولو كان الأئمة من قبل قالوا بغير ذلك . واذا هداه البحث الى أن الأرض ليست مركز الكون انقاد الى النتيجة ، ولو كانت تخالف ما قالهُ بطليموس الاسكندري . أو ما أخذت بهِ الكنيسة . واذا تبيّن ان الاحتراق هو الاتحاد بالاكسجين ، أخذ بهِ ولو قال رجال الثورة الفرنسية « ليست الثورة في حاجة الى العلماء » . واذا أيّدت الأرصاد قول النشئين في انحناء أشعة الضوء ، وجب ألاّ تنكرهُ برلين لأن صاحب القول غير آري . وأن يقبلهُ العلماء ولو أنكرتهُ برلين

فاذا ثبتت حرية البحث ، سلب الاسلوب العلميُّ سرَّ حياته ، واذا سلب الاسلوب سرَّ حياته ، عاد الظلام يرين على العقول . والسلاسل تقيّد الفكر ، أي ان شجرة العلم ، يتمشى اليبس فيها رويداً رويداً ، والذبول يسري في ورقها وثمرها . ان جميع مخترعات الأرض ، وهي من شجرة العلم في منزلة الثمر ، مردُّها الى ما كشف من نواميس الطبيعة ، وهي في منزلة الجذور

ان طريق حرية البحث ، وحرية الفكر ، كان الى العصور طريقاً وعراً ، قامت على

جناياته أنصاب لذكرى من حرق ، ومن قطع رأسه ، ومن عذّب ومن سجن ومن نفي ولكن اختبار الدهر ، أثبت على مرّ العصور ، أن طريق الحرية العلمية أجدى وأنفع ، وهم لذلك ، يرتابون في كل قيد يفرض ويناهضونه كما سأبيّن

ومن مفاخر الحضارة الاسلامية في إبان ازدهارها العلمي من الف سنة ، ان الخلفاء والأمراء كانوا يبيحون للعلماء والباحثين حرية كاملة ، بغير نظر الى مذهب أو عنصر . ولاعجب في ذلك فالقرآن الكريم حثّ على العلم ، وقد كان الاسلام ديمقراطيًا ، والديمقراطية والعلم قوتان متفاعلتان . وهذه الحرية العلمية ، هي سرّ ما نفع به العرب الحضارة العالمية من من تراث علميّ قيّم

الحرية العلمية والدكتاتورية

من المظاهر التي تستوقف العناية ، في تاريخ العلم والحرية ، ان الثانية ، كانت مهداً من مهود الحرية الفكرية وقبراً لها

فالجامعات ومعاهد العلم العالي ، لا تستطيع أن تؤدي مهمتها وتضطلع بنشر رسالتها ، إلاّ اذا أبيحت الحرية المطلقة لأساتذتها . فالحرية الجامعية ، ليست صفة تنتحلها طبقة مميزة من طبقات المجتمع البشري . ولكنها أداة لا يستغني عنها المجتمع ، في سبيل ما يحتاج اليه ، وهو : تدريب الأجيال المتلاحقة من النشء تدريباً يمكنها من أداء الخدمة الى المجتمع على أوفى وجه تتيحه أحوال الزمن . أما في ما يتعلق بالأساتذة أنفسهم ، فهذه الحرية ، هي الحرية المطلقة التي تباح لهم ، ليست في أوسع معانيها ، ولا يجب ان تكون ، إلاّ نسبياً يؤخذ ويحتفظ به بالبحث والاتقان والاخلاص للحقيقة كما يرونها

وقد كانت الجامعات الألمانية ، في القرون الأخيرة ، في مقدمة المعاهد العلمية العالية ، التي طالبت بهذا الحق مطالبة قوية ، وفيها تمّ الاعتراف به تدريجاً . فقد أنشئت جامعة جوتنجن في سنة ١٧٣٧ ، وهي تعد في طليعة الجامعات الألمانية ، التي طالبت بالاعتراف بقيمة حرية البحث وحرية التعليم في الجامعة . ومع ذلك كانت مطالبتها في عهدها الأول منصبة على مقاومة الاملاء عليها من قبل الحكومة ، دون الاحتفاظ بحرية المعين في التعليم . ولكن في النصف الأخير من القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين ، اتجه الاهتمام خاصًا وتدريجاً الى ضمان حق الباحث في السير وراء الحقيقة في ميدان بحثه ، أنّى قاده البحث . وهذا ينطبق على سائر الجامعات بوجه عام . ولعله يتجلى في كلمة لتوماس جفرسن الديمقراطي الاميركي الشهير قالها في حفلة تأسيس جامعة فرجينيا سنة

١٨١٩ وهي «وتعرفون الحق والحق يحرركم» وهو من آيات الانجيل. ثم أضاف «ستقوم هذه الجامعة على الاعتراف بتعقل البشري بحرية لا تحد، لأننا هنا لا نخشى أن نسير وراء الحقيقة أنى قادنا السير، ولن نخشى التسامح مع أي خطإ ما دامت حرية تفكيره ومقاومته قائمة».

وفي يونيو من سنة ١٩٣٧ احتفلت جامعة جوتنجن الالمانية بانقضاء قرنين على تأسيسها. وكانت جامعة هيدلبرج قد احتفلت احتفالاً من هذا القبيل قبل سنة، فحضر المدعوون الى هيدلبرج، من معاهد العلم في أقطار الارض، ولكنهم شهدوا احتفالاً سياسياً، لاحفلاً علمياً وقوراً. فلما وجهت الدعوة الى جامعات اميركا وبريطانيا وفرنسا للاحتفال بعيد جامعة جوتنجن خشي ممثلو هذه الجامعات ان يكون احتفال جوتنجن، احتفالاً بانقضاء اربع سنوات على الحكم النازي، لا بانقضاء قرنين على تأسيس جامعة من أشهر جامعات المانيا، وهي جامعة خسرت في خلال اربع سنوات من الحكم النازي: نصف مدرسيها، ونصف طلابها و ١٥ في المائة من هيئة أساتذتها، وتحولت جامعة سياسية، بعد ما فقدت تقاليدها العريقة في حرية البحث. فاعتذر هؤلاء الممثلون عن تلبية الدعوة.

وفي وسعنا ان نبحث ما أصاب الجامعات الالمانية في الثماني السنوات الاخيرة، على أنه منال للعلم في ظل النظم الدكتاتورية، تحت الموضوعات الآتية

١ — الموقف من الحرية الجامعية

٢ — الموقف من بعض العلوم ونظرياتها

٣ — الموقف من التبادل العلمي الدولي

١ — يعتقد النازي ان استاذ الجامعة يجب ان يخدم الدولة، لا بالبحث الحر الذي يفضي الى الحقيقة في ميدان بحثه، وما قد تفضي اليه هذه الحقيقة من تطبيق علمي تجني الدولة فائدته، ولكن بقبول المبادىء أو «الايديولوجيا» التي يقوم عليها نظام الحكم، ولا يكتفي بأن يقبل الاستاذ ما يفرضه عليه الحكام بل عليه ان يمارس. فالتجرد عن الهوى أو ما درجنا على تسميته بالموضوعية في العلم محتقر عندهم الآن، ومعدود مستحيلاً ومنافياً لروح الاجتماع.

وهذا منافض لما درجت عليه المانيا، عند ما كانت جامعاتها في أوج ازدهارها، ومفخرة بين معاهد العلم العالي في الدنيا كلها، اليها تحدى ركائب طلاب العلم، وعلى أقطابها تنهال ألقاب الشرف وجوائز العلماء العليا. عندئذ كان يحق الاستاذ أن يقدم لفظ «فون» على اسم أسرته اعترافاً بشرف المنزلة التي بلغها، بغير نظر الى جنس أو مذهب. وكان لا يسوغ «الهر بروفسر» في الأندية والبلاط الا كبار رجال الدولة والجيش، وكانت الجامعات

منتشرة في طائفة كبيرة من المدن ، وكان في بعضها كليات اشتهرت بعلم أو طائفة من العلوم مثل كلية الرياضة في جوتنجن وكلية الفلسفة في برلين ، وكان الطلاب يؤمونها من انحاء الارض قاطبة

أما الآن فقد أغلق الالمان معظم جامعاتهم . وفقد الأستاذ منزلته إذ انصرف الطلاب سعياً الى منصب في الحزب بدلاً من تلقي العلم على أستاذ مشهور . وفي أثناء الاحتفال بعيد جامعة هيدلبرج ، قال برهارد رست ، وزير الثقافة ، في خطبته « ان الفكرة القديمة في العلم القائمة على الايمان بتفوق العقل قد ماتت » . ولم يكن ترانك وزير العدل دون زميله رست صراحة ، فقد قال في خطبته في جمعية أساتذة الجامعات « ان الموضوعية القديمة هذيان » . وقال « والاستاذ في الجامعة الالمانية عليه أن يسأل نفسه الآن سؤالاً واحداً هو : هل عملي العلمي يسدي خدمة ما الى الوطنية الاشتراكية » وقال كريك مدير جامعة فرانكفورت « لا نعترف بعلم الا العلم الذي يقبله النازي »

وقد طبقت هذه المبادىء وما هو شبيه بها ، تطبيقاً دقيقاً على نظام الجامعات ، فنزعت حقوق شتى من هيئات الأساتذة ، ومنحت للحزب أو للحكومة فأصبحت « الجامعات » — على قول الأستاذ هارستهورن أحد أساتذة كولومبيا وصاحب أوفى كتاب في موضوع « الجامعات الالمانية في ظل الوطنية الاشتراكية » — فرعاً من النظام السياسي الذي يسيطر عليه الحزب النازي . وكل أستاذ جديد يتقدم او يرشح للتعيين في جامعة ما ، يجب ان يقنع منحنبه بأن ولاءه « للفورر » لا يداخله ريب ، والامتناع عن القسم يعين الولاء ، بعد اثبات هذا الولاء في الماضي ، حاسم في الحيلولة بين الأستاذ والتعليم ، بل قد يفضي ، ومن المرجح انه يفضي الى مساوىء أخرى تعقبه . واذا القسم يعين الولاء للفورر « لشابت بينهما صلة — على قول ناطق رسمي باسم وزارة الثقافة — هي كصلة الرقيق بالأمير في عهد الاقطاع بالقرون الوسطى »

عجباً يرانك ! ان العلماء الذين بدأوا يأبون في عصر الاحياء ، أو العصر الذي تلاه ، ان يسلموا بما يقوله أرسطو ، لا يعنيهم بأن العقل يجب أن يبحث عن الحقيقة ، لا ان يستخرجها من أقوال القدامى ومؤلفاتهم مهما تسم منزلتهم ، وأن يكون حرّاً في بحثه لا يخضع الا لتدليل ناطق بين يديه ، هؤلاء العلماء ينظرون في ألمانيا الآن ، أن يقسموا يعين الولاء للفورر . وليس في هذا القسم من ناحية هذا البحث عيب ولا عليه اعتراض . ولكن اذا أقسموا أصبحوا منه في منزلة الرقيق الأمير السيد ، وعليهم أن يأخذوا عناصر نظرتهم ، بعد حتى النظرة العلمية البحت ، من الآثار الرسمية وهذا على رغم من انهم خلفاء

أولئك العلماء الذين قاوموا مساعي الملوك من قبل للتحكم في معاهد العلم وفقاً لرغباتهم وأهوائهم

وليس هذا التحكم في التعيين والعزل والنقل والاعفاء، كل ما هنالك، بل ان الجوّ الذي يسود الجامعات الالمانية الآن، هو جوّ دسّ وتحذّر وقطيعة بين الأصدقاء والزملاء

وقد روى الاستاذ هارتشهورن حوادث كثيرة منها القصة التالية وهي مثال. وملخصها ان أستاذين من الاساتذة كانا في أحد الأيام خارجين من حجرة المعلمين في جامعتهما، فوجدا حقيبة نسيها أحد زملائهما، ففتحاها ليعلما منها، حقيبة مَن هي، فوجدا أوراقاً كثيرة تحوي مذكرات عن حديثهما القريب في الحجرة، وحديث غيرهما من الاساتذة، وهي أحاديث يتبادلها الزملاء على الغالب للبث والشكوى في غير تحرّش أو قصد الاساءة الى الدولة. وكان واضحاً ان النية متجهة الى ابلاغ هذه المذكرات أو غيرها، الى السلطات الادارية أو الحزبية. والمكافأة عليها وعلى ما كان على شاكلتها، هي الحظوة والترقي في سلّم الحزب، وفي سلم العلم كذلك! وعرف القصة، وألفى صاحبُ المذكرات نفسهُ مقاطَعاً من زملائه، فلما سأل عن السبب وقيل له في المذكرات، أجاب في غير يسير من الدهشة والسخرية «وهل تظنّ يا صاحبي انني وحدي بين الاساتذة في هذا»!

ومثل آخر. من عهد قريب أذاع مجلس أساتذة كلية الحقوق في احدى الجامعات الالمانية الجنوبية أنه وافق على رسالة الدكتوراه لأحدهم، ولكن موافقتهُ، يجب ألاّ تؤخذ دليلاً على انه يشاطر صاحبَ الرسالة رأيه المبثوث والمؤيد أقوى تأييد فيها وهو قرارٌ مألوفٌ في المعاهد العالية. ويتضح ان الرأي في هذه الرسالة لم يكن مما يفخر به النظام القائم، فوجّهت المجلة الرسمية «جرمنك نوندشت» نقداً لاذعاً عنيفاً قوياً الى مجلس أساتذة هذه الكلية لانه أحجم عن النهوض بالتبعة الواقعة عليه كما يجب وكما ينتظر

ومن الوسائل الخفية التي تعتمد في اقصاء اساتذة معيّنين، لأن تعليمهم وعلمهم وموقفهم بوجه عام لا يروق الحزب، أن يُعهَد الى استاذ ما من تولّي عمله في لجنة الامتحانات وذلك تجنّباً لاعفائه رسمياً من مهام منصبه، فلا يكون ذلك الاعفاء مثاراً للتأويل في انانيا أو للاعتراض والمناقشة خارجها. واذا ظهر الخبر بين الطلاب بان الاستاذ الفلاني لا يدعى الى تولّي مهمة الامتحان، بدأ الطلبة ينصرفون عن تلقي العلم عليه، ثم يظهر سحب الجامعة وليس امام اسم هذا الاستاذ عدد الطلاب الذين يحضرون دروسه، فيستدعيه الوزير أو من كان في منزلة الوزير، وقد يحتفي به ثم يسأله في براءة ودهشة ألا يظن أنه يحسن في هذه الاحوال ان يستقيل. والسؤال أمر مستتر. وفي الوقت نفسه يقبل الطلاب — وهم جميعاً اعضاء في هيئة ما

من هيئات الحرب — على الأساتذة المرموقين القيام فيه . وقد يكون الفرق ، من حيث المكانة العلمية ، بين الأستاذ المتمرس ، والأستاذ الذي تزدحم في بيته وفود الطلاب ، كالفرق بين الصانع والناشىء ، أو بين المتمكن والمتعثر . والأمثلة على هذا الأسلوب وغيره كثيرة

٢ — الموقف من بعض العلوم ونظرياتها

تأبى الدولة النازية أن تأخذ بمذاهب علمية شتى ، يأخذ بها العلماء في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وغيرها . وكان علماء ألمانيا أنفسهم قبل قيام النظام النازي ، يأخذون بها كذلك . والاختلاف في ما يُعَدُّ حقيقة علمية ، مباحٌ وهو كثير الوقوع ، الى أن تثبت الحقيقة بالتجربة والامتحان ، ويقوم عليها الدليل العلميُّ المقبول عند جمهرة العلماء . والاختلاف في النظريات العلمية أكثر ، وهو مباح كذلك ، لان النظريات انما توضع لتفسير طائفة من الحقائق العلمية المثبتة وتنظيمها في صورة متسقة الأجزاء مفهومة . ولكنَّ أساس الاختلاف مردُّهُ في الحالة الاولى ان عدم وفاء الدليل ، وفي الثانية الى الاعتقاد بأن نظرية أخرى أولى بالغرض من نظرية معيَّنة . ولم نسمع في تاريخ العلم الحديث ان عالماً حرَّ يعتدُّ به ، أنكر حقيقة ، أو أبى الاخذ بنظرية ما ، لان مكتشف الحقيقة أو صاحب النظرية ، من سلالة تختلف عن سلالته ، أو لأنه دمقراطيٌّ أو شيوعيٌّ أو مسلم أو مسيحيٌّ . أما في ألمانيا النازية فرفض الأخذ بنظريات معيَّنة ، والاعتراف بعلوم معيَّنة ، يرتدُّ الى مثل هذه الاسباب . وتعرضة الدولة على علمائها ، لأنهُ يتفق ونظامها السياسيَّ والاجتماعيَّ أو يخالفه ، لا أكثر ولا أقل . ومع ذلك فالاسباب التي تستند اليها في رفض الأخذ بنظرية ما ، تتنوَّع وفقاً لرياح السياسة التي تكون غالبة في وقتٍ ما . فقد نددت ألمانيا مثلاً بمذهب النسبية المقرون باسم اينشتين . وليس جميع العلماء الأحرار مجمعين على الاخذ بكل مقتضياته . فمخالفته أو مخالفة بعض أجزائه ومقتضياته ، ليس منكراً لذاته . ولكن الدولة النازية نددت به لأنه قطعة من « الشيوعية اليهودية » ، مهما يكن معنى هذا القول . ولكن حتى الدولة النازية لم تلتزم جادَّة التماسك في التنديد بهذا المذهب . فقد وصفته « بالشيوعية اليهودية » قبل عقد الاتفاق الألماني السوفياتي في شهر اغسطس من سنة ١٩٣٩ . فلما عقد ذلك الاتفاق أسقطت لفظة « الشيوعية » من التنديد لتلافي لوم الروس استعمالها ، ووُصف مذهب النسبية عندئذٍ بأنهُ مثل بليغ على التفكير اليهودي المغلوط المشوش . ترى ماذا تصفه الآن ، لو دعا المقام الى وصفه وبين الروس والالمان ما بينهم ! !

وعلماء ألمانيا الذين قبلوا النظام النازي يذهبون كلَّ مذهب في تسويغ مجاراتهم لحكامهم .

واني لأضرب مثلاً على ذلك بأحد أعلامهم فيليب ليناردو وهو ذو مقام عالمي وحائز جائزة نوبل الطبيعية وقد أطلق اسمه على معهد خاص بالبحث الطبيعي أنشىء في جامعة هيدلبرج. هذا العالم يزعم ان النورديين دون غيرهم أسدوا خدمات جليلة وأضافوا اضافات عظيمة الى العلم. وقد يكون العالم الطبيعي عالماً كبيراً ومحققاً متفرقاً ولا يكون دقيق العلم بالتاريخ. وقد يلتمس العذر للاستاذ ليناردو في هذا. ولكنه ألف كتاباً في سير العلماء من فجر التاريخ فالاطلاع على ما أسدته الشعوب المختلفة الى الارتقاء العلمي مفروض فيه. ولكن الروح الغالبة في الجامعات الالمانية — التي قدمت وصفاً مرجزاً لها — تحمل على الظن ان ليناردو مجار لأسياد المانيا السياسيين، ناسياً أو متناسياً ما أسداه العرب مثلاً من خدمات جليلة الى العلم، بحفظهم كنوز المعرفة القديمة من الضياع واضافتهم اليها اضافات جليلة ثم نقلها الى أوربا حيث كانت احدى الدعائم الكبرى التي قام عليها عصر الاحياء في العلوم. وناسياً أو متناسياً كذلك ما أسدته الفرنسيون والايطاليون والبولونيون واليهود وغيرهم من خدمات وما أضافوه من اضافات عظيمة الشأن

وقد كتب الاستاذ بيربلخ، أحد أساتذة جامعة برلين مقالات ندد فيها بطريقة اليهود في معالجة الرياضيات. وهو واحد من جماعة من الاساتذة تذهب الى أن الرياضيات «علم أطفال» وان الالمان هم الذين كشفوا اللانهائية الرياضية، وان غرض الرياضيات كغرض الوطنية الاشتراكية هو تحويل الفوضى الى نظام. وهذه الآراء وغيرها مبسوطة مبذولة في رسالة تؤيدها وزارة الثقافة الالمانية، وهي تزعم ان السلالة النوردية منفردة بشعورها الدقيق «بالمدى اللانهائي» وانه من الواجب على كل مدرس ان يغذي هذا الشعور لينقي به الأطفال الالمان. المنطق الذي يُعتمد لعنة الرياضيات عند الشعوب اللاتينية واليهود

ونظرة النازيين في الصلة بين العلم والدولة نظرة مرنة تتحول وفقاً للغرض السياسي. وقد قدمت مثلاً على ذلك في ما قالوه عن النسبية. وهاهو ذا مثل آخر على هذه المرونة، في ما يقولونه عن الآري واوصافه. «عندما تولى الامر في المانيا كان الكلام مصبوباً على الآري الأشقر، الأزرق العينين، المستطيل الرأس، المخلوق حاكماً أو سيداً للناس. ثم ظهر أن هذه الأوصاف لاتنطبق كل الانطباق على البقاريين ولاتنطبق انطباقاً ما على اليابانيين. وهناك مايشير الى أن اليابانيين يرمون بذكر أوصاف تلمح من طرق غير مباشر الى أنهم طبقة منحطة من البشر. في حين كان هتلر وروسنبرج يخطبان وذهم قبيل عقد اتفاق مقاومة الشيوعية في سنة ١٩٣٧. فغيرت الأوصاف وقررت أكاديمية القانون الالماني في مستهل سنة ١٩٣٨ أن ألفاظ «الآري» و«الدم الالماني» و«الدم المتصل بالدم الالماني بصلة القربى» يجب أن

يستعمل بها لفظا «السلالة الآورية» . وليس هناك في علم الاجناس سلالة أورية . فلما اشتد النزاع الالماني البولوني ، وكان من المتعذر إنكار بعض الأوصاف المتقدمة عن البولونيين — وبخاصة لأن بعض البولونيين تجري في عروقهم دماء جرمانية ، وكثير تجري في عروقهم دماء سقلبية ، وهي متصلة بصلة القربى بالدماء الجرمانية ، والحالة السياسية تقضي بمعاملة الروس — انتقل الاهتمام في الكتابات الالمانية من الأوصاف والصفات الجثمانية ، الى العناصر التي تدخل في تركيب « الروح الجرماني » . وكذلك وصف البولونيون بأنهم غير جرمانيي الروح ، بغير أن يوصفوا وصفاً يسيء الروس — حينئذ — ولا فيه تلميح اساءة الى اليابانيين ، الذين وصفوا بأن عناصر روحهم تتفق وعناصر الروح الجرماني

قد يكون كلُّ هذا سياسةً بارعة ، ولكنهُ حتماً ليس علماً

وعلى ذكر بولونيا أويد أن أضرب مثلاً على موقف النازي من العلم والمعاهد العلمية في البلدان المحتلة ولبابةُ إخماد روح الشعب الخاضع بإبادة علمائه الذين قد يكونون نواةً لنهضته العقلية . فعندما خضعت بولونيا للحكم النازي . دُمِّر معهد الطبيعة التجريبية في جامعة وارسو ، ونقلت جميع معدّاته العلمية الى الرايخ . وأعدم الاستاذ بيالوبرزسكي أستاذ الطبيعة النظرية ، وهو من العلماء الممتازين . وفي جامعة كراكوفيا — وهي من أقدم الجامعات الاوربية — دعي اعضاء هيئة التدريس إلى اجتماع يتلقون فيه تفسير مبادىء الوطنية الاشتراكية لكي يعرفوا ما عليهم ان يلقنوه طلابهم . فلما خرجوا من حجرة الاجتماع وجدوا مركبات تنتظرهم في الخارج فنقلوا بها الى المعتقلات ، ثم صدرت صفحةُ اتهامهم فاذا هي تحتوي على تهم ثلاث

اولاً — حاول الاساتذة ان يبدأوا دراساتهم الجامعية بغير ان ينبئوا السلطات الالمانية .

ثانياً — انهم مضوا في التعليم وفي امتحان الطلبة بغير ان يستأذنوا في ذلك . ثالثاً — ان جامعة كراكوفيا ما فتئت من خمسة قرون معقل الروح البولوني

ومن الجائز ان التهمة الاولى والتهمة الثانية : من الجرائم التي يعاقب عليها في البلدان المحتلة في اثناء الحرب — اذا صحّت — ولكن يلوح ان التهمة الثالثة هي بيت القصيد في صفحة الاتهام هذه وهي « ان جامعة كراكوفيا ما فتئت من خمسة قرون معقل الروح البولوني »

وقدمات ثمانية عشر من الاساتذة في المعتقل الاول ونقل خمسون الى معتقل آخر ليشتغلوا بتكسير الحجارة ، والباقون أطلق سراحهم بعد ذلك وما وقع في كراكوفيا وقع مثله أو على نمطه في تفاوت في جامعات ڤينا وبراج وڤرسوفيا وكوبنهاجن واوسلو وبروكسل وليدن واوترخت ولوڤان وغيرها

وخلاصة القول في هذه الناحية من الموضوع ان الدولة النازية تنكر حرية العالم وتعدُّ

العلم أداة تتلاعب بها وفقاً لأغراضها السياسية، وتتنكر للعلماء الذين لا يحاربونها ولو كانوا آريين من صميم الآرية ، وتتنكر لهم على اطلاق القول اذا كانوا غير آريين . ان اقطاب العلم المعترف بهم في جميع انحاء العالم . وقد مات فرتز هابر بعيداً عن المانيا منتحراً وهو الذي أنقذها في الحرب العالمية الماضية من قلة الغذاء وفقد المواد المفرقعة . واينشتين منفيٌّ وقد نزعت جنسيته الالمانية وصودرت أملاكه ومقتنياته . وغيرهم عشرات مثل شرويدنغر وبورن في علم الطبيعة وماير هوف في علم وظائف الاعضاء وفرويد وكوهلر في علم النفس وفريدندلش في الطب. ويقول الاستاذ نيدهام Needham استاذ الكيمياء الحيوية في جامعة كمبردج ان الفاً وثماني مائة وثمانين عالماً من الطبقة الاولى أعفوا أو طردوا من جامعات المانيا والنمسا بين سنة ١٩٣٣ وسنة ١٩٣٨ ومنهم ٢٥ في المائة من ثلثي جوائز نوبل العلمية من الالمان والنمسويين . وليسوا جميعاً من اليهود

ويقول نيدهام كذلك ان معامل بحث متعددة قد ألغيت وفرّق رجالها مثل معهد «رونا» للكيمياء الحائز (الازيمات) ومعهد « اردمان » لتربية الانسجة وبحث أشكال الاحياء (Morphology) ومعمل «ماير هوف» لبحث فسيولوجية العضلات . وقد بقي بعض تلاميذ ماير هوف في المانيا — مثل لومان Loman — ولكنهم لم ينشروا بحوثاً جديدة خلال سنوات . ثم ان علم الاجنة التجريبي علم وضع أسسهُ عالمٌ ألماني هو فلهلم رو Roux وهو من أهم الأركان التي تقوم عليها علوم الاحياء . ولكن أكبر علمائه مشردون الآن وكرسي سبمان — وهو شيخ هذا العلم في المانيا — في جامعة فريبورج يشغلهُ رجلٌ كان في ما مضى يُعدُّ عالماً كبيراً في علم الاجنة ولكن جلّ اهتمامه الآن منصرف الى الطيران الحربي

٣ — الموقف من التبادل العلمي الدولي

ليس ثمة ريب ، في ان التبادل العلمي الدولي ، من أسرار تقدم العلم الحديث . وقد تكفي عبارة عابرة في رسالة علمية تكتب في المانيا ، لتحرك ذهن باحث اميركي ، الى كشف خطير الشأن . وهذا وقع فعلاً في استنباط « السيكوترون » او الجهاز الرحوي الذي يمكن أصحابه الآن من صنع مواد مشعة من عناصر غير مشعة بالنضيعة . ومن هنا فائدة المؤتمرات العلمية ، والمجلات العلمية التي تنشر فيها انباء البحوث الاصلية ، وتبادل الاساتذة بين بلد وآخر . ولكن الباحث الالماني مقيَّد بشتى القيود التي تحول دون هذا التبادل او تحدُّ كثيراً منه . فاذا تلقى دعوة من معهد اجنبيّ للتدريس ، او لتولي البحث في احد معاملهِ ، او من هيئة علمية معترف بها ، لحضور مؤتمر من مؤتمراتها ، فعليهِ اولاً ان يقدم تقريراً الى مدير الجامعة أو الى وزارة الثقافة عن كل دعوة يتلقاها من هذا القبيل . وهذا أمر لا

يعترض عليه ولكنه — أي الباحث أو الاستاذ — لا يستطيع أن يقبل دعوة ما من هذا القبيل الا بموافقة الوزارة وعليه ان يعرض على الوزارة كل خطاب يدري ان يلقيه أو كل رسالة يقصد ان يذيعها او ان ينشرها ، حتى ولو كان بينها مقالات أعدت للنشر في المجلات الالمانية . وفي جميع هذه الحالات لا بدّ من موافقة الزعيم النازي المحلي لعصبة مدرّسي الجامعات . وجميع الاوراق التي تبيح له قبول الدعوة يجب ان ترسل الى وزارة الخارجية ومكاتب حكومية اخرى ويتعين عليه في اثناء اقامته في الخارج أن يبقى متصلاً بممثلي المانيا الدبلوماسيين أو ممثلي هيئة الحزب المحلية ، وبعد عودته عليه أن يعدّ تقريراً يحتوي في ما يحتوي عليه ، مشاهداته السياسية

واذا تقرّر ارسال وفد لحضور مؤتمر علميّ في الخارج ، عيّن قائد ذلك الوفد من أعضاء الحزب الذين يصحّ الاعتماد على ولائهم . فالتبادل العلمي الحرّ ، في مثل هذه الاحوال بين الوفد الالماني ووفود سائر الامم متعذّر ، والاتصال ببعض الزملاء الالمان المقيمين في الخارج صعب أو مستحيل . وقرارات كل مؤتمر علمي يحضره وفد ألمانيّ ، في مسائل علمية بحت ، لا يجوز لهذا الوفد قبولها إلاّ اذا كانت موافقة للتعليمات الصادرة اليهم من الحكام

وليست هذه القيود مقتصرة على الصادر العلمي من المانيا ، بل هي مفروضة كذلك على الوارد العلميّ اليها ، من محاضرين وكتب ومجلاّت . والحجة البيّنة في الرسوم الوزاري الصادر في ٩ يناير ١٩٣٥ على هذا الموقف هي : ان بعض المحاضرين أعربوا عن آراء لا تدلّ على انهم من أولئك الاجانب المرغوب فيهم للمحاضرة في الجامعات الالمانية من ناحية السياسة الثقافية . حقّا ان المانيا فرضت بيديها على نفسها حصراً عقليّا

وفي سنة ١٩٣٧ حظر دخول مجلة نايتشر الى المانيا ، لأنها احتجت على معاملة العلماء غير الآريين في المانيا . ومجلة نايتشر من المجلاّت العلمية العامة ، التي تؤدي خدمة التبادل العلمي الأممي على خير وجه ، في جميع بلدان العالم . وقد يبلغ عدد الرسائل العلمية الأصلية التي تنشر فيها في سنة واحدة الف رسالة ، من علماء ومجمّعات في ثلاثين بلداً أو أكثر خارج بريطانيا . وفي طليعة العلماء الذين يوافونها بنتائج أبحاثهم ، لتعرض على أنظار علماء العالم ، هم العلماء الالمان . وعلى الرغم من قانون الحظر الذي حال بين مجلة نايتشر وبين العلماء الالمان ، ظلّ ناشرو الكتب العلمية من الالمان يرسلون الى ادارة هذه المجلة الكتب التي ينشرونها — الى أن نشبت الحرب — ليتولّى مراجعتها ووزنها ، علماء متوفرون على موضوعاتهم مترهون في إبداء الرأي عن كلّ هوًى وغرض

(في الجزء الثاني بحث في العلم والنظم الديمقراطية)

.. وتكلم الجبل

قصة بركان

في يوم ٢٠ مايو ١٨٨٣ رويت روايات عن ظهور بوادر من النشاط البركاني في جزيرة كراكتوى فلم يعبأ بالرواية احد، ولا قلق الناس لان الجزيرة إحدى جزائر ثلاث في مضيق سُندا بين جاوة وسومطرى وهي بعيدة عن كليهما ولا يسكنها أحدٌ او سكانها قلّة لا تذكر

واهتمّ احد سكان بتافيا—عاصمة جاوة — بتنظيم رحلات الى كراكتوى ومشاهدة البركان ، فاذا كأسهُ كبيرة قطرها نصف ميلٍ وعمقها خمسون قدماً وكانت في الجبل المعروف باسم راكاتا . وكان في قعر الكأس فجوةٌ قطرها مائة وستون قدماً ؛ تنفث بخاراً يحدث صوتاً قويّاً مزعجاً فلا يكاد أحد يسمع ما يقول جاره ولو كان يصيح . وعاد الركب الى جاوة ، فقال ابناء البلاد : « ان الجبل الصامت يتكلم وقد يتكلم قريباً»

وفي ٢٦ اغسطس سنة ١٨٨٣ تكلم الجبل الصامت

وكان كلامه فرقعةً لها دويٌّ عظيم . ففي الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم رأى بحارة سفينة على ستة وعشرين ميلاً من جزيرة كراكتوى عموداً من الدخان وقاسوا ارتفاعه فاذا هو سبعة عشر ميلا . وفي الساعة الثالثة بعد الظهر سمع دويُّ الرعد على بعد مائة وخمسين ميلاً ووصف هذا الدوي في الساعة الخامسة بان قصفة لم يعهد قبلاً في كل جاوة

ولم تنقض ساعتان اخريان حتى انتشر عامود الدخان انتشاراً جعلهُ أشبه ما يكون بشجرة الصنوبر وكان يضيء ثنايا القاتمة شرر كهربيّ . وكانت سفينة تمخر عباب اليمّ على مقربة من الجزيرة فأمر ربانها بالقاء قطعة من الرصاص في الماء لسبر غوره ، فلما رفعت كانت حاميةً وعجز البحارة عن لمسها

وظل الدويُّ طوال الليل فعجز الناس في بتافيا عن النوم . ولم يعلم على وجه التحقيق أي البراكين الثلاثة كان مصدر الانفجارات الاولى ولكن النكبة الكبرى تسند الى جبل راكاتا

على ان الكارثة كانت لا تزال في مستهلها في ليل ٢٦ اغسطس عند ما جفا النومُ سكان بتافيا ونحو مائة من المدن والضياع المجاورة . وفي صباح الاثنين سمعت أربعة انفجارات متوالية بلغ دويها مبلغاً عظيماً ونسف ثالثها الجزيرة فعلاً وهزّ كرة الارض

وقد ذهب بعض الكتّاب العلميين الى انه لو جمعت جميع القنابل والمواد المتفجرة التي استعملت خلال الحرب العالمية الاولى في كومة واحدة وفجرت دفعة واحدة لما بلغ دويها الا نصف دوي هذا الانفجار البركاني . ومع ان الاعتماد على تصوير كهذا التصوير غير مستحسن فإنه يسوق الى الذهن مثلاً على القوى العظيمة التي أحدثت هذا الانفجار في كراكتوى

كان الدوي الذي أحدثهُ الانفجار مسمعاً في جاوة وسومطرى وبورنيو . ففي بلدة كاريمون بجاوة ، على ٥٥٠ ميلاً من كراكتوى ، ظن اولاً ان الدوي مرده الى انفجارات مقصودة في سفينة لتستغيث . فخرجت الزوارق متأهبة للانقاذ . ولكنها عادت فارغة الايدي لأن مصدر الدوي كان ابعد من ذلك بكثير . وسمع في مضيق مكاسر ، بين بورنيو وجزائر سيليب وهو يبعد عن كراكتوى ٩٦٩ ميلاً ، فخرجت سفينتان للاستطلاع . وحدث في خليج لونشيا بجزيرة بورنيو — وهو يبعد ١١١٦ ميلاً عن كراكتوى — أن ظن المجرمون غير المدانين من سكان القرى ، ان الدوي انذار بالانتقام العلوي فروا من ضياعهم . وكان شأن الناس في جزيرة تيمور ، شأنهم في جاوة ، أي أنهم ظنوا ان الصوت مصدره سفن تستغيث والبعد بينهما ١٣٥١ ميلاً

ودهش الناس في سنهول فكتوريا في غربي استراليا إذ سمعوا دمدمة كدمدمة المدافع مع انهم لم يكونوا يعلمون ان في جوارهم فصائل من الجيش . واستيقظ الناس في بلدة « وايلي وارتز » باوستراليا — وهي تبعد ٢٠٢٣ ميلاً عن كراكتوى — على صوت كأنه صوت نسف المحاجر . وفي جزيرة رودريجز سجل مدير البوليس في دفاتره أنه سمع « هديراً بعيداً كأنه دوي مدافع كبيرة قادم من الشرق » . وقد استغرق صوت الانفجار أربع ساعات في انتقاله من كراكتوى الى رودريجز والمسافة أقل من ثلاثة آلاف ميل قليلاً . ورودريجز جزيرة في النصف الغربي من المحيط الهندي تبعد عن جزائر موريس ٤٠٠ ميل الى الشرق

وقد أحدثت هذه الانفجارات — ولا سيما الانفجار الكبير — موجة طاغية من ماء البحر ارتفاعها خمسون قدماً . فغمرت جزائر فرلاتن ولونج ، ومحت جزيرة سيبيزي وصدمت سواحل جاوة وسومطرى فدمرت ١٦٣ قرية وحطمت خمسة آلاف سفينة كبيرة وصغيرة وقتلت ٣٦٣٨٠ من الناس . وكانت السفينة الحربية الهولندية بروف Berouw راسية في مياه سومطرى فقذفتها الموجة مسافة ثلاثة اميال وثلاثة ارباع الميل الى الداخل حيث وجد حطامها في مكان يعلو ثلاثين قدماً عن سطح البحر . وقد سجلت هذه الموجة وقيست في جميع انحاء الارض وكان في الوسع تتبعها على سواحل كاليفورنيا وشمالي فرنسا ، وكان ارتفاعها ثماني عشر بوصة امام جنوبي افريقية وهو يبعد عن كراكتوى ٥١٠٠ ميل

ولم تنقض عشر ساعات على حدوث الانفجار حتى سجلتهُ الاجهزة في اوربا الوسطى وكان التسجيل الاول بفعل موجة من الهواء بلغت اوربا عن طريق الهند وآسيا . وبعد

انقضاء ست عشرة ساعة أخرى اهتزت الاجهزة ثانية بفعل موجة هواء ثانية وصلت اوربا عن طريق المحيط الهادي والقارة الاميركية والمحيط الاطلسي

وبعد انقضاء اربع وثلاثين وست وثلاثين ساعة أخرى اهتزت الاجهزة لان الموجتين كانتا قد التقتا حول الكرة الارضية وبقيتا تلتقيان حولها اياماً وهما تضعفان رويداً رويداً.

وكان آخر تسجيل من هذا القبيل يوم ٤ سبتمبر أي بعد انقضاء تسعة أيام على الانفجار

ومن غرائب ما حدث في منطقة بحر سندا، حيث جزيرة كراكتوى، ان الانفجار قذف في الجوّ مقادير عظيمة، من العثير الدقيق، فأصبح الفجر والشروق والأصيل والغروب والغسق، من المشاهد الرائعة النادرة لان هذا العثير كان يكسّر أشعة الشمس فيميل لون الفضاء عند الافق الى الحمرة القانية. وهذا يفسّر ما قاله الرحّالون الدانمركيون، عن «سماء ثانية كالدم» وكان ذلك على أثر انفجار سابق حدث في جزيرة كراكتوى سنة ١٦٨٠ وبلغ من ارتفاع اطباق العثير في الفضاء أنها كانت تعكس اشعة الشمس بعد توارريها وراء الافق. فكان مشهدها من الظواهر الجوية المستغربة

أما جزيرة كراكتوى نفسها فقد انشقّت أرضها ولم يبق إلاّ أحد الشقين. ولولا ما ترسب على الشق الباقي مما قذفهُ البحر في الفضاء لما كان ما بقي منها سوى شيء يسير. أما الجزيرتان الاخريان — فيرلاتن ولونج — فقد احترقت ارضهما عندما ترسّبت عليهما طبقة من حجر الطفّان الحامي الى حدود الحمرة، وكانت كثافة هذه الطبقة ستين ذراعاً. أي ان حجم الجزيرتين زاد. وتكونت جزيرتان صغيرتان لا يزيد كلٌّ منهما على ميل، ثم غارتا

وظلّ أرخبيل كراكتوى، بعد هذه الكارثة عقيماً لا يصلح للحياة، لأن انبعاث الحامض والتداح الشرر الكهربي في جوّه خنق كلّ حيّ تحت غشاء كثيف من ثاني اكسيد الكربون ثم غطّت سطح الارض طبقة من الرماد والطفان. فبعد تلك الكارثة كان ارخبيل كراكتوى كما كانت قوات الارض قبل ٥٥٠ مليون سنة. وعلى هذا اجمع العلماء. وقد كان الاستاذ «كوتو» الفرنسي أول عالم تجرّأ على التجوال في انقاض كراكتوى في مايو سنة ١٨٨٤. وكانت الانقاض لا تزال حامية — فلم ير أثراً ما للحياة، ما عدا وتيلاء واحدة ربما حملتها الريح على خيطها، وكانت الوتيلاء تلسع شبكتها ولكنهُ كان محملاً بغير جدوى اذ لم يكن في الجزيرة شيء تستطيع الوتيلاء ان تتغذى به. وبعد انقضاء ثلاث سنوات على الكارثة رست سفينة صغيرة على شاطئ كراكتوى وكانت تقل فريقاً من العلماء وكانوا يتوقعون أن يروا آية الحياة آخذة في غزو هذا اليباب فلم يخب أملهم. وتوالت البعثات العلمية بعد ذلك وكل بعثة كانت تشاهد نموّ الاحياء نموّاً مطرداً في هذه الجزيرة وفيها الآن صنوف متعددة من النبات والحيوان، ومنها أشجار بواسق وحيوانات تسبح أو تطير

الاعتبارات الانسانية

في القانون الجنائي الوضعي

للاستاذ عبده حسن الزيات المحامي

مما أثر عن الرومان قول قائلهم : « القانون هو العدالة والحُسنى » ، ولست أريد في هذا المقال أن أبحث النسبة بين القانون والأخلاق ولا النسبة بين القانون والعدل المطلق ، وانما أعرض لبعض أحكام تشريعية تصدر جميعها عن اعتبارات انسانية وهي لم تنفرد هذه الاعتبارات ، دائماً وبطريقة لا شك فيها ، بإملاء تلك الأحكام . واني أقدّر ان وصفَ « الانسانية » وصفٌ غير سائغ فليتربص القارىء اذن حتى يقرأ المبادىء التي سنعرض لها تستقيمْ له الصورة المرادة ويتبينْ المقصود بهذا الوصف في خصوص هذا المقال . ولا ضير مع ذلك ان نتعجل فنقول ان الانسانية فيما نريد هي ، في بعض الامثلة ، احساس الشفقة والبر بالانسان وفَهْمُ ضعفه والاعتذار عن هذا الضعف اعتذاراً قد يصل الى تضحية أغراض أخرى عزيزة على الشارع . وهي في أمثلة أخرى ، احساس السمو والرغبة في التسامي بالانسان ورفعه الى مستوى قد يكون فوق مستوى الأوساط من البشر

— ١ —

هذه هي الدولة لا يجد لها الفقهاء مهمة أخطر من تحقيق الامن العام ، ولهذه الغاية كان التشريع الجنائي كله وكانت النظم الجنائية والعقابية من تحقيق واتهام ومحاكمة وقضاء وسجون وإحصاء ، — وهذه هي الدولة تحرص الحرص كله على ألاّ يفرَّ من قبضتها متهم وألاّ يتفلّت عقابها مُدان ، وانها لتعمل في هذا السبيل الى ان تُسري للذين يعضهم بعض في خصوص طائفة من الجرائم فتعفي من العقوبة من يمُدُّ على شركائه كما قضت الفقرة الاخيرة للمادة ٤٨ من قانون العقوبات الاهلي الخاصة بالاتفاق الجنائي ، — وهذه هي الدولة يضطرد منطقها سليماً فتعاقب البريء الذي لم يشارك في جرمه تعاقب « كل من أخفى نفسه او بواسطة غيره شخصاً فرَّ بعد القبض عليه أو متهماً بجناية أو جنحة صادراً في حقه امر بالقبض عليه . وكذا كل من أعانه بأي طريقة كانت على الفرار من وجه القضاء مع علمه بذلك » (م ١٤٤ عقوبات أهلي) ، — فما بالها تتردّد وتتلعثم وتتقهقر في ختام هذه المادة الاخيرة فتعلن ان احكامها

«لا تسري على زوج أو زوجة من أخفى أو ساعد على الاختفاء أو الفرار من وجه القضاء ولا على أبويه أو أجداده او أولاده او أحفاده» ؟ وما بالها تكرر هذا الموقف في المادة التالية فتعاقب كل من أعان على الفرار من وجه القضاء شخصاً لم يتهم بتعد ولعل جريمته لما تبلغ سمع الدولة ولكنها بلغت علم هذا المعين «فآوى الجاني أو أخفى أدلة الجريمة أو قدم معلومات تتعلق بالجريمة وهو يعلم بعدم صحتها أو كان لديه ما يحمله على الاعتقاد بذلك» ثم تتلعثم أيضاً وتتردد وتتقهقر فتخرج من أحكام هذه المادة «الزوج والزوجة وأصول وفروع الجاني» ؟

ان الدولة تملك أعصابها فتقيم التوازن في تشريعها ولا تدع غضبها على المجرم يكتسح حصافتها : انها جد حريصة على ان تأخذ المجرمين بالنواصي والأقدام ولقد تنوعت أغراض العقوبة بين انتقام، وتحقيق خلقي لعدالة الجزاء، وتأديب للمجرم ليرعوي عن غيه، وزجر لغيره لكيلا يسير سيرته، وترضية للمجني عليه لتطمئن نفسه بما لقي غريمه، وأشرف على هذه الأغراض جميعها غرض أشمل وأسمى هو صون المجتمع وضمان استقراره واستمراره، — ولكن هذه الاعتبارات جميعاً تتقهقر أمام اعتبار آخر فما هو هذا الاعتبار ؟ انهُ الاعتبار الانساني الذي يفهم النفس البشرية ويعتذر عن ضعفها المقبول فيعفيها من هذا الموقف الحرج ويخلصها من الوجود بين هاتين النارين ولولا أعفاها الشارع بهذا الاستثناء لكان كمن يعذب مخلوقاً بربطه بين جوادين متدابرين يلهب ظهراهما بالسياط

ولعلّ قائلاً ان يقول : انما نظر الشارع في إعفائه الى مصلحة الأسرة قبل كل شيء فهو هنا لا يزال متأثراً بالاعتبار الاجتماعي لأن الأسرة هي خلية المجتمع فلا شذوذ اذن لأن حق الجماعة أمرّ بالعقاب كبدأ وحق الجماعة أمر بالاعفاء كاستثناء، فلئن سلم جدلاً بهذا الاعتراض، أفلا يطل علينا الاعتبار الانساني من هذا التعليل نفسه ؟ أليست مصلحة الأسرة غرضاً انسانياً كما هي منفعة اجتماعية ؟ ولكنه مع ذلك تسليم جدلي ليس الاّ . فان الاسرة يؤذيها ان يحبس الزوج الجاني والدولة لن تنجيه من العقاب وانما هي تغفر لزوجته ان تتستر عليه، والأسرة قد تقوم بنفسها غنية عن الجد او الجهد، فلن يضير اذاً هذا الاعفاء بغير المباحة النفسية الصادرة عن هذا الاعتبار الانساني

ولعلّ هذا المعنى يزداد وضوحاً حين نتأمل حكماً استحدثه التشريع العراقي، فزيد المادة السادسة عشر من القانون الرقيم ٤٢ لسنة ١٩٣١ التي تعلن انه :

«١ — لا تكون الزوج شاهداً على زوجته ما لم تكن متهمة بارتكاب جريمة ضد شخصه او ماله أو ضد ولد احدهما

٢ — لا تكون الزوجة شاهدة على زوجها ما لم يكن متهماً بارتداد او جريمة ضدها او ضد مالها او ولد احدهما

٣ — لا يكون الولد شاهداً على أحد أبويه ما لم يكن متهماً بجريمة ضد شخص الولد أو ماله

٤ — لا يكون أحد الأبوين شاهداً على ولده ما لم يكن الولد متهماً بجريمة ضد شخصه أو ماله

ولم نكن في حاجة لكي نفهم باعث هذا التحريم ، الى ان نقرأ المذكرة التفسيرية التي وضعتها وزارة العدلية وجاء فيها : « ان المقصود من هذه المادة هو تأييد الوضع الخاص المتعلق بعلاقة كل من الزوجين والأب والولد ، والمادة ١٣٧ من قانون العقوبات البغدادي مثال للوضع المذكور » . وهذه المادة الـ ١٣٧ هي أخت المادة ١٤٤ من قانون العقوبات المصري التي أسلفنا حديثها مع فارق بسيط جعل المادة العراقية أوسع صدراً و أكثر تمشياً مع حكمة الاستثناء وأوفر « انسانية » حين أضافت الاخ والأخت الى قائمة الذين يعفون من المستثرين على المتهمين والمجرمين

— ٢ —

« وليس الا اعتباراً انسانيًّا ما أملى على الشارع المصري حكم المادة ٦٦ من قانون العقوبات التي تقضي بخفض العقوبة بالنسبة للمجرم « الذي تزيد سنه على اثنتي عشرة سنة وتقل عن خمس عشرة سنة كاملة » ثم أملى عليه المادة ٧٢ التي تمنع الحكم بالاعدام أو الأشغال الشاقة او المؤبدة « على المتهم الذي زاد عمره على خمس عشرة سنة ولم يبلغ سبع عشرة سنة كاملة »

وهو هو عين الاعتبار الانساني الذي لم يُجز معاقبة الفتيات بالتأديب الجسمي وقصره على الأحداث الذكور حتى كان تعديل سنة ١٩٣٧ خطا هذا الاعتبار الانساني خطوة أخرى فألغى عقوبة التأديب بالقياس الى الذكور ايضاً

وحيث توجد عقوبة الجلد يتدخل الاعتبار الانساني في تنظيمها على نحو ما فعل حين أوحى بالمادة ٢٤٠ من قانون أصول المحاكمات الجزائية في العراق (أي قانون تحقيق الجنايات) وهي التي تأمر بوقف تنفيذ حكم الجلد « اذا ظهر للمحاكم — أي القاضي — أو للمأمور الحاضر قبل تنفيذ الجلد ان المجرم ليس في حالة صحية ملائمة لتحمل الحكم » وتخير القاضي الذي أصدر الحكم بين « ان يأمر ثانية » بتنفيذه بعد استشارة طبية وان يبدله بأية عقوبة أخرى كان له ان يصدرها عند المحاكمة » ثم تذهب أبعد من هذا فتمنح القاضي أو المأمور « حق العفو النهائي عن بقية العقوبة » اذا ظهر اثناء تنفيذ عقوبة الجلد ان المجرم ليس في حالة صحية ملائمة لتحمل باقي العقوبة » ولهذه المادة نظير أكثر من ابتكار : فالقاضي لا يستنفد

سلطته بمجرد اصدار الحكم بل تظل له رقابة على تنفيذه ، والعفو الذي لا تملكه إلاّ الهيئة التشريعية — بالنسبة للعفو الشامل — وولي الأمر بالنسبة للعفو عن العقوبة كلها أو بعضها ، يفوّض هنا الى القاضي أو الى المأمور المشرف على تنفيذ الجلد

وان وقف تنفيذ هذه العقوبة ليذكرنا بما قررته قوانين كثيرة — منها القانونان المصري والعراقي — من ارجاء تنفيذ حكم الاعدام في المجرمة التي يتضح انها حامل

— ٣ —

واذا كان الاعتبار الانساني هو الذي حرّر المدين من استرقاق الدائن إياه كما كان المعهد عند الرومان ، واذا كان هذا الاعتبار عينهُ هو الذي ميّز بين المسئولية المدنية والمسئولية الجنائية في تشريع كالتشريع المصري فلم يَرَ في الاعسار المدني جريمة واستبقى للمدين المعسر حريته (إلاّ أحوالاً استثنائية يكون العقاب فيها على أمور أخرى غير الاعسار بالذات كما هو الشأن مع التاجر الذي يفلس ويتضح انه أفلس بالغش أو بالتقصير) فان هذا الاعتبار لا يتناقض مع نفسه حين يشذ عن المبدأ العام فيستحدث مادة يعاقب بها « كلّ من صدر عليه حكم قضائي واجب التنفيذ بدفع نفقة لزوجه أو أقاربه أو أصهاره أو أجرة حضانة أو رضاعة أو مسكن وامتنع عن الدفع مع قدرته عليهِ مدة ثلاثة شهور بعد التنبيه عليه بالدفع » فان « الانسانية » تقضي بحماية أولئك المحتاجين فلن يَذرهم الشارع إذن لرحمة هذا المدين يلثوي عليهم ويتمنّع في تعجيزهم عن استيفاء النفقة والعلةُ تدور مع معلولها وجوداً وعدماً فلا عجبَ أن تستطرد المادة فتقول ان الدعوى الجنائية لا تقام « إلاّ بناء على شكوى من صاحب الشأن . . . وفي جميع الأحوال اذا أدّى المحكوم عليه ما تجمد في ذمته أو قدّم كفيلاً يقبلهُ صاحب الشأن فلا تنفذ العقوبة » . ان هذه الجريمة الجديدة التي تكوّن مادة ٢٩٣ من قانون العقوبات الاهلي هي الجريمة المعروفة باسم « هجر الاسرة » ذلك العمل الذي عرض له بالبحث المتبسط الاستاذ عبد الفتاح بك السيد[1] رئيس محكمة النقض والابرام الآن وان هذا الاسم ليدل في ذاته على طبيعة الفعل المنهي عنهُ أو الترك المحرّم ليطالعنا منهُ الاعتبار الانساني قبل غيره

— ٤ —

في هذا المثل الاخير يرعى القانون الانسانية بمعنَيَيْن : فهو من جهة يرحم بعض المحرومين المفتقرين الى النفقة ، وهو من جهة أخرى يريد أن يرتفع بالانسان الى مرتبة أسمى بحيث

(١) مدون في الكتاب الذهبي للمحاكم الاهلية ج ٢ طالب به بالنسبة الى امور غير مجرّمة كان أحدها هجر الاسرة

يبادر الى توفية حق النفقة لذويه فان لم يرتفع راضياً رفعهُ وهو راغم

ومن هذا القبيل أيضاً عقاب « من ترك أولاده الحديثي السن أو عاجزين موكولين لحفظه يهيمون وعرضهم بذلك للاخطار أو الاصابات (م ٣٩٣ عقوبات أهلي) » والشارع هنا يعاقب على مجرد الترك ولو لم يؤدِّ فعلاً الى خطر فنحن أمام نص وقائي. أما وقوع الخطر فانهُ يستتبع تطبيق مواد أخرى أغلظ عقاباً

بل ان احساس الشارع ليدق فيتجه الى السائمة والدواب يعاقب « من يتسبب في موتها أو جرحها بعدم تبصره أو باهماله أو عدم اتقانه أو عدم مراعاته للوائح » . ومن الحق أن نلاحظ ان هذه المادة قد قيدت الفعل فجعلت من أركان الجريمة أن يكون الحيوان « ملكاً للغير » فليس إذن الاعتبار الانساني هو الذي يملي هذا الحكم أو ليس هو الذي يساهم فيه بالقسط الأوفر فلنلتفت إذن الى مادة أخرى أعظم عقاباً (هي المادة ٣٥٥ عقوبات أهلي) التي تُعلق القول فتعاقب « كل من قتل عمداً بدون مقتضٍ حيواناً من دواب الركوب أو الجر أو الحمل أو من أي نوع من أنواع المواشي أو أضرَّ به ضرراً كبيراً » . ان المادة لا تشترط ان يكون الحيوان مملوكاً للغير فهل يحلّ لمالك الحيوان ان يقتله « بغير مقتضٍ » تصرفاً مطلقاً منهُ في ملكه ؟ ان المادة لا تسمح بهذا لأن نصها مطلق يشمل المالك وغيره . ولكن من الحق ان تفسيرنا هذا يتعارض مع حق المالك المطلق في التصرف في ملكه ولو باعدامه فهل تكون الملكية هي في ذاتها « مقتضٍ » كافٍ كل الكفاية ؟ اننا نقف هنا أمام اعتبارين أحدهما اجتماعي والآخر انساني : فأما الأول فانهُ لا يسمح للمالك بالاعتداء على مقومات الثروة الزراعية القومية وقد يعتبر سفيهاً ، بمعنى من المعاني على الأقل ، من يبدد مال نفسه لمجرد التبديد « وبدون مقتضٍ » ، واما الثاني فانهُ يأبى للانسان ان يعذب السائمة ولو كانت ملك يده فيضرُّ بها « ضرراً كبيراً » . ومن الاحاديث الشريفة ما معناه : « دخلت امرأة النار في قطة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الارض » . وهذا الاعتبار الأخير هو الذي سيطر ، فيما أرجح ، على تفكير الشارع ان كان تفسيري للمادة تفسيراً غير مخطىء

واني لأرى هذا المثال وهذا التفسير الذي أقول به متحفظاً الى حكم آخر يبدو فيه الشارع وقد تسرَّفَ حسهُ وحرص على أن يحمي شعور المارة من الأذى فعاقب « كل من مرَّ من القصابين أو غيرهم بلحم البهائم أو جثتها داخل المدن أو حملها بدون أن يحجبها عن نظر المارين » (م ٣٨١ ثالثاً — عقوبات أهلي) ، وقد يتبادر الى الذهن ان العامل الصحي هو الموحي بهذا الحكم ولكن التأمل في قول النص « او غيرهم » ثم قوله « او جثتها » يظهر ان الشارع

كان ينظر الى شيء آخر غير الصحة فان المادة تنطبق على من يحمل خبيراً ميتاً ليدفنه وهي صورة لا تبدو فيها الخشية الصحية كما أن مجرد الخجل لا يمنع الضرر الصحي ان وجد فهو اعتبار حسي ذوقي إذن

— ٥ —

ولكن التشريع الجنائي لا يريد أن يقف عند هذه الخطوات المتواضعة في رفع الانسان الى مراتب انسانية أعلى ، إنه يود أن يقفز قفزات خطيرة وجبارة في هذا السبيل ، وكيف نستغني عن هذا التعبير حين نسمع هذه الاقوال النظرية التي تؤسس المسئولية الجنائية العمدية على مجرد الامتناع عن التطوع لدفع الخطر عن الغير؟ أيكون قاتلاً متعمداً القتل من يرى شخصاً مشرفاً على الغرق فلا يجازف بنفسه لانقاذه ويدعه للتيار فيغرق ؟ لقد قالها أو قال قريباً منها ، « لوازيل » Loysel حين وضع قاعدته : « من استطاع أن يمنع فلم يمنع فقد أثم » "qui peut et n'empêche, pêche."

ولقد كان القانون الكنسي يجنح الى هذا الاتجاه صادراً عن نظرة خلقية رفيعة ، ولكن الثورة الفرنسية قيدت الجرائم فلا جريمة الا بنص ولا عقوبة الا بنص . والامتناع لن يُعدّ عمداً لأن القانون لا يفرض البطولة ولا المروءة على الناس ، ومع ذلك فان من التشريعات الحديثة ما يجنح الى شيء من هذا السمو فيأخذ الناس بمعيار خلقي شديد ولكنه ، في الجملة ، لا يبلغ ذلك الذي القصي بل يقنع بأن يعدّ الامتناع امتناعاً اجرامياً مساوياً للعمد اذا كان الممتنع مكلفاً قانوناً او اتفاقاً القيام بعمل ما لم يعمله . فرجل البوليس الذي لا يؤدي واجبه باستدعاء المطافيء يُعدّ مسئولاً عن جريمة الحريق العمد وحارس الشاطيء الذي يرى مشرفاً على الغرق فلا يتقدم لانقاذه قد يُعدّ قاتلاً عمداً[1]

ان التشريع قد يرتفع بالانسان قبل ان يرتفع الانسان به ، ولكن من الخير ان تمثل كلمة العالم الانكليزي سالمون : « ان القانون لم يوضع للقديسين والأبطال ، ولا هو وُضع للاغبياء ، ولكنه موضوع للاوساط من الرجال ، أوساط الفضائل وأوساط التمييز »

---

(١) انظر من ذلك المادة ٢٥٣ عقوبات ولوني التي تعاقب من لا يقدم ما في طوقه من مساعدة لشخص في خطر موت ظاهر إلا اذا كان هذا التقدم يعرضه هو او غيره لخطر أو يقتضيه أو يقتضي الغير تضحية كبيرة ، كما تعاقب — بنفس القيود — من لا يتخذ الوسائل المأوصولة لحماية أشخاص معرضين للغرق او حادث مشابه

وكذلك المادة ٢٥٥ من القانون عينه التي تعاقب الوالد الذي يمتنع عن تقديم المساعدة اللازمة عند الوضع لامرأة حملت سفاحاً اذا كانت في حالة بؤس

جابر بن حيان

ليوسف كرم

كان للاسلاميين علم أخذوا أصوله من مصادر مختلفة وساهموا فيه بقسط ، وهو يمثل نظرة معينة للعالم في زمن معين ، فدراسته تقفنا على لون من التفكير خاص، وعلى مجهود نفيس بذل في الشرق بلغة الضاد . أجل ان العلم الطبيعي القديم قد عفا كله ، وليس لتاريخ العلم مثل ما لتاريخ الفلسفة من قيمة انسانية دائمة . غير ان له قيمته ، وفيه عبرة لنا ونحن في مستهل نهضة جديدة نصطنع العلم الحديث ونحاول ان نتمثله ربما نجاري الغربيين في تقدمه

ومن بين الأسماء البارزة في العلم الاسلامي أبو موسى جابر بن حيان المقول انهُ عاش في القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد) وانهُ تلميذ جعفر الصادق الامام الشيعي السادس، والذي تذكر له مؤلفات كثيرة بعضها مطبوع ومعظمها لا يزال مخطوطاً . ومما طبع مجلد في ٥٥٩ صفحة عنوانه « مختار رسائل جابر بن حيان » نشره سنة ١٩٣٥ ، بالقاهرة وباريس ، المسيو پول كراوس ، الاستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، وأعلن في مقدمته بالفرنسية انهُ يعتزم اصدار مجلدين (بالفرنسية كذلك) في دراسة هذه الرسائل ، وانهُ يبدأ بأن يقدم للقراء الاصول الضرورية لحل ما تثيره من مسائل

وقد اختارها بعد مراجعة جميع المخطوطات الجابرية بمكتبات اوربا والقاهرة وأستانبول

وقد برَّ بوعده فأخرج اوائل هذا العام المجلد الثاني على ان يخرج الأول بعد أشهر . وانما أخر الاول لانهُ كثير الاحالة الى الثاني فكان لابد من طبع هذا اولاً . وقد تولى الطبع المجمع العلمي المصري برعاية جلالة الملك فاروق الأول . ويقول لنا المؤلف في مقدمة المجلد الثاني ان المجلد الأول بدأ بنبذ نقدي للكتب الجابرية مقسمة الى طبقات ومرتبة بحسب تعاقبها التاريخي ثم يبحث في صحتها فينتهي الى انها مصنوعة ، وانها ترجع الى مدرسة من الكيميائيين ؛

التسعين وضعتها حوالي سنة ٣٠٠ للهجرة (٩١٢ ميلادية)، واخيراً يبين علاقتها بذلك العلم السري الخفي الذي تسرب الى العالم الاسلامي من العالم القديم. وليست الرسائل كيميائية فحسب، وان كان للكيمياء فيها المحل الاكبر، فهي تتناول علوماً أخرى كالطب والطبيعة والتنجيم والطلسمات والرياضيات والموسيقى والفلسفة بمختلف أقسامها، وبالاختصار هي موسوعة العلوم القديمة كما تقدمها هذه العصور. فنستطيع ان نقول ان جابر بن حيان اسم موضوع من طراز حي بن يقظان: يرمز الى حركة علمية واسعة قامت بعد نقل الكتب اليونانية الى العربية

والمجلد الثاني يدور على «جابر والعلم اليوناني» فيعرض المذهب الجابري في خمسة فصول: الكيمياء، علم الخواص، علم التكوين، علم الطبيعة، علم الميزان

وفي كل فصل يستقصي المؤلف المصادر الاجنبية التي استقى منها جابر. فنقول كلمة في كل من هذه الاقسام

الكيمياء علم قلب (او اقلاب) الاحجار، اي تحويل المعادن. هذا القلب يبدو ممكناً اذا ذكرنا طبيعة الاحجار، فهي مزاج مقدار من الكبريت والزئبق، تتكوّن في جوف الارض بتأثير السيارات، ولا تختلف الا بكيفياتها العرضية

وهذه الكيفيات عبارة عن صور مختلفة للكبريت ترجع الى اختلاف التربة واختلاف تعرضها لحرارة الشمس

وكل عنصر من العناصر الاربعة (النار والهواء والماء والتراب) فظاهره كيفيتان من الكيفيات الاربع (الحار والبارد والرطب واليابس) وباطنه كيفيتان أخريان يمكن اظهارهما بوسائل صناعية. فكل حجر ينطوي على حجر آخر ويمكن قلبه باضداد الكيفيتين الظاهرتين واحداهما فتخرج الباطنتان او احداهما وذلك بمعالجته بالاكسير او الدواء، كما يعالج الطبيب الجسم المريض بدواء له كيفية مضادة لكيفية الخلط الذي سبّب المرض. ويذهب جابر، خلافاً للكيميائيين اليونان ومعظم كيميائيي العرب، الى ان الاكسير يمكن صنعه، ليس فقط من المواد المعدنية، بل ايضاً من مواد نباتية وحيوانية، ومزجها بعضها مع بعض، أي مزج كيفياتها، بحيث ان الذي يبلغ الى التحكم في الكيفيات يبلغ الى معرفة كل شيء، الى فهم علم الخليقة وصناعة الطبيعة

ويقصد جابر علم الخواص دراسة قوى الاحجار والنبات والحيوان، وتفاعلها، وطرق الانتفاع بها في مختلف الصناعات وخصوصاً الطب. وترى من الممكن التعبير عن قوى الاحجار بالارقام، فتعبر لكل رقم علاقة الحجر بالاكسير. وهو يبيّن هذه الارقام، وكما

تختلف في مجموعة الرسائل ، كما يختلف تقسيم العلوم ، فتحكم بتعدد المؤلفين . والفكرة على كل حال تحتل مكاناً كبيراً في المجموعة ، وهي فكرة فيثاغورية الغرض منها اقامة الكيمياء وسائر العلوم على قوانين الاعداد ، وانخضاع الطبيعة بأسرها لما يسميه جابر بعلم الميزان . والى جانب هذه الفكرة العلمية نجد عنده فكرة أخرى متصلة بالسحر اتصالاً واضحاً ، هي ان الموجودات الطبيعية حاصلة على قوى خفية اذا كشفناها وأحسنا استخدامها شفت كل مرض ووفرت لنا السعادة والسلطان على الطبيعة ؛ وهو يورد بهذا الصدد كثيراً من الامور الغريبة الطارفة .

وعلم التكوين أو علم الصور نتيجة العلوم الطبيعية كلها ، فهو الغرض الأسمى . والتكوين يعني الكون أو التوليد ، وبالأخص الكون الصناعي للموجودات المعدنية والنباتية والحيوانية ، وخاصة الانسان . فان الكيمياء لا تقتصر فائدتها على تحويل الأحجار ، ولكنها تفيد أيضاً في تكوين أو توليد أجسام جديدة بمزج العناصر وتقدير الكيفيات . فان الكائن الحي نتيجة انطلاق القوى الطبيعية ، وفي الطبيعة تولد ذاتي خاضع لقانون الكمية أو العدد ، فباستطاعة الانسان محاكاة الطبيعة في فعلها ، بل تحسين منهجها ان لزم الأمر . « الخلق ثوعان الثاني هو الفن وهو يشبه الاول » . والسبيل الى ذلك ان يُصنع اولاً مثال أو صورة للموجود الذي يراد توليده : « المثال لا بد منه » ، وهو قولنا : إما إنسان وإما واحد من الحيوان ... ثم تتخذ آلة من زجاج أو بلور أو حجارة أو لون من الألوان ... وكذلك ان أريدَ ينقل بدن جارية ووجه لرجل ، أو عقل رجل وجسم صبي ، أو أحبَّ الى التغيير فانه ممكن ، وعملت الآلة على الشكل الذي يراد ... »

وعلم الطبيعة أو فلسفة الطبيعة يجب ان يلتمس في الرسائل العلمية إذ لم يبق لنا شيء تقريباً من الرسائل الفلسفية . وفي كتاب التصريف (ص ٤٠٥ وما يليها من المجلد العربي) بيان لتكوين العالم

يقول هذا الكتاب : ينبغي أن نتصور دائرة أولى عاقلة قادرة فاعلة ، ودائرة دونها عاقلة غير فاعلة ولا قادرة بل متصورة للامور كلها ، ودائرة ثالثة دونها فاعلة قادرة جاهلة ، وفي داخلها دائرة رابعة لا تعلم ولا تجهل ولا تقدر ، وهي عالم الجوهر الذي يسميه قوم بالهيولى ، ومن جوانب هذه الدائرة الزمان والمكان ، وفي داخلها دائرة العناصر السائط .. والدائرة الثالثة تشاغلت بالتي دونها فصارتا شيئاً واحداً مركباً وهو أون ما انفعل ، فيه بدء الى العالم الذي دونها في الكون . والعالم الذي هو داخل الدائرة انما تدور لتصعد وتعلم بأن الأشياء المدورة قليلة الآفات ، وانه غير هالك الا ان يشاء صانعه سبحانه وتعالى

الذي هو فوق اسعة الأوّلة . . . وفي تلك الدائرة احدى عشرة دائرة ودوائر أخر كثيرة . . .

وأخيراً علم الميزان الغرض منه وزن الكيفيات في مختلف الاجسام ، ورد جميع الاشياء الى نظام من الكمية والقياس ، فنحصل بذلك على علم مضبوط . ان للحيوان ميزاناً ، وللنبات وللحجر ، بل للنفس والعقل ايضاً . النصحة توازن الاخلاط ، والمرض غلبة أحدها ، فالدواء يجب ان يكون مضاداً للخلط الغالب . لذلك ترتب الاغذية والادوية بحسب كيفياتها وبحسب قوة هذه الكيفيات أي مقدارها . والعدد ١٧ « قاعدة الميزان وهو مكوّن من اربعة أعداد هي أمّ الاعداد » . وهناك « ميزان الحروف » ذلك ان الفاظ اللغة مركبة من حروف ، فكذلك الاشياء المتناول عنها بالألفاظ مركبة من الكيفيات ، فبتحليل الالفاظ يتوصل الى تعيين التركيب الكمي والكيفي للاشياء . وكثير من الرسائل الجابرية يدور على تطبيق هذه النظرية في العلوم الطبيعية وخصوصاً الكيمياء ، مع اختلاف بين الرسائل . فاصل الالفاظ عند جابر طبيعي لا وضعي ، وبذلك توجد علاقة بين الاسم والمسمى ، على انه يعرف أوجه الضعف في هذا الرأي : فللمترادفات ألفاظ مختلفة تدل على شيء واحد ، والالفاظ المشتركة تدل على أشياء متباينة ، واللغات كثيرة تسمي نفس الشيء بأسماء مختلفة

يعرض الاستاذ هذه النظريات فيبرز النقط الهامة ويسامي النصوص بعضها ببعض ويجلو الغامض منها ويبين الفوارق بينها ، فنعجب بعلمه وبراعته . ولكن اعجابنا يشتد حين نصل معه في كل فصل الى تحقيق المصادر التي أخذ عنها جابر ، ونقفي على أثره بين عشرات الكتب القديمة والحديثة فنقع على الموضع المنشود . يقرر الاستاذ اولاً ان المجموعة الجابرية قابلة للشبه بمجموعة قدماء الكيميائيين اليونان فانها أكثر اصطناعاً للتجربة ، وأكثر تنظيماً ، وأقل رمزاً وغموضاً ، وتعرف بالكيمياء العضوية ، تستخدم النوشادر ، وتؤسس تحويل المعادن على مبادىء عددية ، وتتحدث عن التوليد التصنعي للانسان ، وتلك أمور لا أثر لها في المجموعة اليونانية . على انه يلاحظ ان هذه المقابلة غير منتجة ، فان المجموعة اليونانية عبارة عن نصوص او شذرات مشوهة ناقصة أشد النقوص ، هي بقايا كتب كانت من غير شك أوضح وأوسع

ويقرر ثانياً ان المصادر يونانية في معظمها على كل حال ، لكنها لا ترجع الى العهد الذي ترجع فيه الينا الرسائل جابرية اذ تذكر سقراط وأفلاطون وفيثاغورس وأرسطو وهرميروس وديمقريطس وطاليس وانبادوقليس . فان كل ما تعزوه اليهم من اقوال ومصنفات منحول وضع في الشرق في تاريخ غير ثابت . وضع في العهد الهلنستي ، عهد انتشار اليونانية

في حوض البحر المتوسط ، في تلك الاوساط الفيثاغورية والافلاطونية التي كانت مزدهرة بمصر وفلسطين وسوريا

ويمضي المؤلف في المقابلة بين مختلفات ذلك العهد وبين آراء جابر . وليس بالامكان متابعته هنا في هذا المجهود الهائل ، واحصاء تحقيقاته في مسائل يونانية واسلامية علمية وفلسفية ، فإنها كثيرة دقيقة ، ولكنا نشير الى بعض ما استوقفنا منها

يقول المؤلف ان تصوُّر جابر للطبيعة آتٍ من الافلاطونية الجديدة ، وهذا ظاهر اذا ذكرنا نظريتها في الاقانيم وصدور الموجودات بعضها عن بعض وتكوّن الأفلاك . ويرد رأي جابر في كون الكيفيات وتحويل العادن باظهار الكيفيات الكامنة ، الى ارسطو ، مع هذا الفارق وهو ان الكيفيات عند ارسطو أعراض وعند جابر جواهر مفارقة للعناصر وأعلى منها تتألف منها العناصر وتتحلّ اليها . وهنا يرى المؤلف تأثير الرواقية التي كانت تعدُّ الكيفيات أجساماً فاعلة تتحد بالمادة المنفعلة ، ويلاحظ ان جابر يدل على المادة بلفظ « جوهر » وان المتكلمين الاسلاميين يعنون بالجوهر الجسم المتحيز ، وان هذه فكرة رواقية . على ان هناك فرقاً بين جابر والرواقية ، فانه يجعل للكيفيات وجوداً مفارقاً في العالم المعقول ، فيبدو متأثراً بالافلاطونية الوسطى

ثم يبين المؤلف ان تأثير الرواقية لم يكن مباشراً ، ولكنهُ وصل خلال تواريخ المذاهب والشروح على ارسطو وكتب الافلاطونية الجديدة والفيثاغورية الجديدة والاطباء والمنجمين والكيميائيين ، وانهُ كان لهذه المؤلفات شأنٌ كبير في معارضة الاسلاميين للارسطوطالية في ميداني الفلسفة والكلام ، ويشير (ص ١٧١ — ١٧٢) الى أن هذه النقطة جديرة بدراسة مفصلة

وعلم الميزان صادر عن نظريات الأعداد عند الفيثاغوريين وأفلاطون والافلاطونية الجديدة ، فيخوض المؤلف في هذه النظريات ، ويسهب في استقصاء المصادر ، ويذكر ان العدد ١٧ كان لهُ قدر كبير في نظر قدماء الفيثاغوريين ، وقد أشار الى ذلك ارسطو ، وان كثيرين في الوثنية واليهودية والمسيحية والاسلام استخدموا هذا العدد في أمور كثيرة

أما « ميزان الحروف » فيرجع المؤلف أصولهُ الى افلاطون وديموقريطس والفيثاغوريين وهو متمم حقاً في كلامه عن فلسفة اللغة عند أفلاطون ومقابلة أقواله فيها ، وفي هذا الفصل يذكر رأي جابر في مساوىء الكتابة العربية (لكثرة الحروف المتشابهة فيها) وفي امكان اصلاحها وأصول الالفاظ ومذاهب النحاة والعلاقة بين المنطق اليوناني والنحو العربي ويعتقد الانسان الآلي يقول ان هذه الفكرة كانت شائعة في آخر العصر القديم ، ويدعي

المصادر كان القدماء يعتقدون ان الآلهة وحي يحيون في التماثيل المصنوعة لهم ، فانتقلت الفكرة الدينية السحرية الى الافلاطونية الجديدة فحولتها الى نظرية طبيعية

العلم الطبيعي الاسلامي مستمد اذن من ذلك العلم اليوناني الذي نما في الشرق وتأثر به فكان أقرب الى الوثنية الشرقية منه الى النزعة العقلية المعروفة عن أساطين الفلسفة ، ديمقريطس وانكسا غوراس وأفلاطون وأرسطو . وقد تمثله العلماء الاسلاميون خير تمثيل ونقلوه الى العربية بدقائقه ، مستحدثين ألفاظاً ومعربين أخرى ، فكانوا لنا قدوة طيبة . وزادوا عليه أشياء ، ولكنهم لم يجاوزوا نطاقه فبقي مجهودهم عقيماً لم يبلغ بهم الى شيء مما كان ذلك العلم يعد به من سلطان على الطبيعة . وكانوا بالجملة أقل توفيقاً من زملائهم علماء الرياضيات وفروعها

والسبب في هذا العقم ان ذلك العلم كان صادراً عن التصور الوثني للعالم ، ماضياً في تيار السحر والطلسمات والتنجيم ، فكان يبحث عن العلل في غير مواضعها ويتوهم عللاً حيث لا علل . وقد حاولت الافلاطونية الجديدة أن تحيله علماً معقولاً فأخفقت شر اخفاق لأنها أخذت به وكان السبيل القويم أن تخرج عليه . ولكنها بمحاولتها هذه صبغته بصبغة عقلية فقتلت كثيراً من العقول ، حتى كانت الفتنة رجعة لما عُرفت كتبها بأوربا في عصر النهضة

ولم يطل العهد بالفتنة . فان العلم الرياضي الاسلامي ، كما يبدو بنوع خاص في كتاب المناظر للحسن بن الهيثم ، كان أوحى ، منذ أوائل القرن الثالث عشر ، الى علماء أكسفورد ، تصوراً آخر تماماً في اعتبار الاشياء موجودات « طبيعية » خاضعة لقوانين « طبيعية » تعلم بالملاحظة والاختبار ، فأسسوا العلم الحديث ، ومهدته جامعة باريس طول القرن الرابع عشر . ورسخ أصوله ومناهجه غليليو وأقرانه ، حتى بلغ اليوم الى ما نرى من قوة وسلطان

ولكن هذا استطراد — وما أكثر ما كنا نستطرد ونحن نقرأ هذا الكتاب ! وانا نرجو أن تكون اشارتنا المعرفة الى محتوياته قد أشعرت القارىء بخطره . فان كل ما نتوخاه بهذه الكلمة أن نوجه اليه أنظار المعنيين بتاريخ العلم والفلسفة في الاسلام ، كي ينظروا فيه ويفيدوا منه كما نظرنا وأفدنا

انه كتاب يعز فوق كل ثناء . فليتقبل المؤلف الجليل اعجابنا وشكرنا ، فقد كشف لنا حقائق كثيرة ، وأوحى الينا أفكاراً كثيرة

الاسكندرية — جامعة فاروق الأول

ما يشغل العلماء

من مسائل العلم والصناعة

الحاضر رحيم المستقبل

بين العلماء شبه اجماع على ان البشر واقفون الآن على عتبة عهد جديد في حياتهم الاجتماعية . ويذهبون الى انهُ اذا كان النزاع على الموارد الطبيعية هو باعث من بواعث النضال بين الامم ، فالعلم يجب ان يزيله بما يتيحه من قدرة على صنع كثير من هذه المواد أو أعواضها في المصانع بالتركيب الكيميائي. ومما لاريب فيه ان العلماء يعارضون أشدَّ معارضة كل ما يفضي الى التبذير في موارد الطبيعة ، ولكنهم يثقون أتمَّ ثقة بقدرة البشر على صنع مواد جديدة تحلُّ محلَّ المواد التي تنفد . ثم انهم يعترفون ، بأن بعض المخاوف الخاصة بنفاد طائفة من المواد الاساسية اللازمة للحضارة ، كان على غير أساس ، أو على أساس واهٍ من الحقيقة . فمن عهد قريب ، كان القلق مستحوذاً على هيئات مختلفة ، حيال نفاد موارد النفط في الولايات المتحدة مثلاً ، والحقيقة انهُ اذا مضى الاستهلاك على هذا المعدل فآبار النفط في الولايات المتحدة تنفد بعد ثلاثين سنة على وجه التقريب . ولكن حجر الصفاح Shale يحتوي على نفط يكفي ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة . وفي مناجم الفحم لم يكفي ما يستخرج منهُ من النفط ، الى سنة أخرى . وفي الحالين ، تفوق نفقة استخراج النفط من الصفاح والفحم نفقة استخراجه مباشرةً من الآبار

ان البنزين يستخرج في هذه الايام من كليهما . وأما في غد فقد يستخرج من كل مادة يدخل عنصر الكربون في تركيبها . ففي معمل الدكتور ارنست برل Berl في معهد كرنيجي التكنولوجي — بمدينة بتسبرج الاميركية — صنع الوقود السائل المستعمل في تحريك الطائرات ، من الدبس أو العسل الأسود molasses

وقد كان برل عالماً نمسويًّا فرَّ من النمسا وهتلر ولجأ الى الولايات المتحدة ، وهو يستطيع أن يستخرج هذا الوقود نفسه من الذرة أو الخشب أو أعشاب البحر أو ورق الشجر . وفي الوسع تسيير السيارات بالكحول . والكحول يستخرج من الذرة والعسل الأسود والبنجر والبطاطا أو الخشب والفحم

نعم ان بعض الذرات لا يستغني أحد عنه الآن ولكن علماء العصر الحاضر يستطيعون بوجه عام ان يصنعوا اشياء كثيرة تبعث على العجب من مواد كانت تعد في طبقة الثمانية المنبوذة ، ويزعمون ان ما يصنعونه يجاري الأصل أو يفوقه . وقد حصل خطوة كبيرة في صنع الأصباغ ففي تاريخ وغيرها صنعوا السكر من الخشب ، والشحوم التي تؤكل من الفحم ، ولكنهم لم يبيحوا أكلها لناس بعد — على ما يعلم — الا في التجارب . وهذا لا يعني اننا اقتربنا من الزمن الذي يكون فيه طعام العشاء حبتين حبة زرقاء وحبة حمراء ، فالجسم البشري مركب على وجه يعده لأكل مقادير كبيرة من الطعام ، ولا بد ان يبقى كذلك ولكنه يعني اننا انتقلنا — على قول نيوتن — خطوة واحدة على ساحل بحر عظيم ، هو بحر علم الأغذية . واذا استفتأنا العلماء الآن ، كما استفتاهم مؤلف كتاب « الرجال الذين يبنون العصر المقبل » ، وجدنا انهم مهتمون أعظم اهتمام بخمسة أمور علمية في المقام الأول

فثمة أولاً « المجهر الكهربي electron microscope الذي يكبر دقائق الاجسام تكبيراً لا يكاد العقل يتصوره أو يصدقه . فالمجهر الذي يعتمد فيه على أمواج الضوء يكبر الاجسام ٢٥٠٠ ضعف . والذي يعتمد على الأشعة التي فوق البنفسجي يكبرها أكثر قليلاً . أما المجهر الكهربي فيكبرها من عشرة آلاف الى ثلاثين الف ضعف . واذا اعتمد على التكبير بالتصوير الضوئي بعد ذلك ، بلغ التكبير مائة الف ضعف الى مائتي الف ضعف . وانه من المحتمل ، في خلال أشهر أو سنوات ، أن يوفق العلماء الى كشوف علمية ، بهذا المجهر ، في طبيعة المادة ، أو وسائل مكافحة الأمراض ، فيكون استهلال عصر جديد في العلم والعمران

وهناك ثانياً البحث في طبيعة نواة الذرة ، ولاسيما الجهاز الرحوي (السيكلوترون) وهو أفعل الأجهزة العلمية التي استنبطت حتى الآن لتهشيم هذه النوى . ويجري لورنس مستنبطه الآن بانشاء جهاز ضخم بجامعة كليفورنيا ، ينتظر أن يستغرق انشاؤه ثلاث سنوات ، وأن يكلف نحو ٤٠٠ الف جنيه ويكون وزنه أربعة آلاف طن . ومتى تم انشاؤه ، استطاع العلماء أن يوجهوا قنبلة الى نوى الذرات طاقة تبلغ مئات الملايين من الفولطات . وله يتعلق شأن عظيم في توسيع نطاق ما يعرف عن تركيب المادة ، وفلق النوى وانطلاق الطاقة منها ، ومعالجة الامراض وما أشبه

وثالثاً هناك مسألة انطلاق الطاقة الكامنة في الذرة وأهم الباحث في هذه الناحية ، مصدرها ذرة الاورانيوم وهو أثقل العناصر ، في ما نعلم . والعلماء يندّدون بكثير مما ينشر في الصحف من هذه الباحث ، لأنه يحمل الناس على الظن خطأ ، ان عصر الاعتماد على الطاقة المنطلقة من الذرة ، قد أصبح وراء الباب . ولكنهم مع ذلك تراهم منصرفين بعناية وجدّ الى بحث قد يجعل هذا الحلم حقيقة واقعة

انهم أثبتوا مبدأ اطلاق الطاقة من مادة معيّنة . ومقدار ما بين أيديهم من هذه المادة طفيف جدًّا . ولكن طريقة استخراجها قد حُسّنت في العهد الأخير . الا انك لا تجد عالماً واحداً من هؤلاء العلماء ، يجرؤ على القول بأن الطاقة الذرية ستكون في متناول الناس ، بعد جيل أو جيلين ، أو على الاطلاق . وكذلك لا تجدُ من يشدُّ على اجماعهم على أن هذه الطاقة لن تكون في المتناول في الستة الأشهر أو الست السنوات المقبلة

وليس بالمرء حاجة الى أن يكون عالماً متبحراً لكي يتصوّر المستقبل عند ما يستطيع الناس أن يعتمدوا على طاقة الذرّة . فمن الطاقة يكون حينئذٍ لا يحد ، وثقلها يسيرة جدًّا حتى لتكاد أن تكون كالهواء أو كالماء بغير ثمن أو بثمن لا يذكر . وعندئذٍ نستطيع أن نكفي كل حاجة من حاجات الناس ، بالاعتماد على قدر يسير من الجهد الذي يبذلهُ الناس الآن لاكفاء بعض هذه الحاجات

ورابعاً هناك العناية العظيمة بالارتقاء الحثيث في معالجة الأمراض معالجة كيميائية

والموضوع الخامس الذي يسترعي عناية العلماء هو استعمال مادة « الكولشيسين » في توليد أصناف جديدة من النبات . والكولشيسين عقّار عام يستخرج من جذور النبات الشوكي العادي ويصلح للاستعمال في شتى أنواع النبات فيزيد سرعة نموها كثيراً وقد تبلغ هذه السرعة أحياناً ألف ضعف

ومن نواحي تأثيره احداثهُ بروزاً او تحولات عرضية ، يورّث بعضها ، فكأنه عامل من عوامل التطوّر العضوي . وهذا الفعل يفتح امام علماء الحياة آفاقاً لا يحدّها تصوّر

هل سبق العلمُ الاجتماع البشري ، فنفحهُ بآيات من التطبيق العملي ، عجز الاجتماع عن تمثّلها وملاءمة أحواله لها ؟ واذا كان الجواب بالايجاب ، فهل يتعين علينا أن نعقد هدنة في ميادين العلم والاكتشاف تدوم سنوات . اذا العلماء مجمعون في الردّ على السؤال الثاني بالنفي القاطع . وهدنة من هذا القبيل في شيء ما ، تكون في منزلة كارثة ، ان لم تتفق عليها جميع البلدان العالم . وهذا مستحيل في أثناء الحرب مبدأً وتطبيقاً . ولا يمكن الاتفاق عليه في أيان السلام ، واذا عقد الاتفاق نقضهُ بعضهم سرًّا . وليس من المصلحة أن تعقد هدنة من هذا القبيل

فالمخترعات الخطيرة الشأن في العهد الاخير ، ترتدُّ الى مكتشفات علمية أساسية تمت قبل سنوات والمكتشفات التي تتاح لفريق العلماء الآن ، هي القواعد التي ينتظر ان تقوم عليها مخترعات العهد المقبل

على ان العلماء الكبار يشغل بالهم حقًّا في هذه الآونة ، مشكلة من مشكلات السلام وهي ما يطلق عليها وصف « التعطّل الصناعي » ، أي تعطّل العمال عن العمل نتيجة لارتقاء

الاساليب الصناعية واتقانها . ولكنهم مع ذلك يقررون ، ان الآلات الجديدة تحدث نقصاً في مجموع العمال ، أو يجب ألاّ تحدث نقصاً فيه . أي يجب ألاّ تزيد عدد المتعطلين عن العمل فالنقل بالعربة والجواد كان يشغل في الولايات المتحدة مثلاً ، مليون رجل قبل اربعين سنة من الزمن . وجاءت السيارة فقضت على هذا العمل او على معظمه . ولكن عدد المشتغلين بصناعة السيارات وبيعها وسوقها ، وبذلك الجانب من صناعة النفط الذي يهيىء الوقود السائل للسيارات بلغ سبعة ملايين في سنة ١٩٣٧

والمخترعات صنفان ، لكل منهما تأثير في التعطل عن العمل مخالف لتأثير الآخر . فالمخترعات التي تنشىء صناعات جديدة كالتلفون والسيارة والتلفزة تفتح أبواباً واسعة لعمال كثيرين . والمخترعات الاخرى تحسّن أساليب صناعية قائمة او مصنوعات متداولة ، وهذه في بعض الحالات تحدث بؤساً وتعطلاً عن العمل في مناطق واسعة ، وان كان هذا التأثير عابراً

ففي صناعة الصلب مثلاً أحدث اختراع جهاز جديد نقصاً كبيراً في مقدار الجهد البدوي المبذول في صنع الواح الصلب ، اذ أصبح — على رأي احد الخبراء في بحث حكومي دقيق — في وسع ١٢٦ عاملاً أن يعملوا عمل ٤٥١٢ عاملاً . ولم يكد اصحاب المصانع يستعملون هذا الجهاز الجديد استعمالاً واسعاً حتى استغنوا في فترة قصيرة عن ٥٨ الف عامل . وبلغ عدد الذين استغني عنهم في بلدة ما في ولاية بنسلفانيا ٥٧٠٠ عامل

والعلماء يذهبون بوجه عام الى ان تعطلاً عن العمل من هذا القبيل يجب ألاّ يكون مشكلة يعانيها العامل الفرد ويحاول حلها على حدة . فالنبعة في رأيهم واقعة أولاً على أصحاب المصانع الذين يعمدون الى استعمال اسلوب صناعي جديد . وعليهم ان يبذلوا غاية الجهد للاحتفاظ باكبر عدد من العمال يستطيعون فعلاً الاحتفاظ بهم . ثم يتعين على الحكومة المحلية والاتحادية ان تشارك في تحمل النبعة . بما تراه من تدبير عمل لمن يستغنى عنهم . فالدربة والقوة الشرية في طبقات الشعب العاملة رأس مال لا يجوز التفريط فيه

والعلماء الذين توفروا على دراسة هذه المشكلة يرون ان مسألة « التعطل الصناعي » مرتبطة أوثق ارتباط بتوزيع العروض والمنتجات . فعندما تحل الآلة محل عدد من العمال تخفض نفقة الانتاج . وعلى اصحاب المصنع عندئذٍ ان يختاروا بين خفض ثمن السلعة ، أو الاحتفاظ بالسعر وجمع ثروة كبيرة في أقصر مدى . فاذا اختاروا الاول اتسع نطاق الاعمال وزاد الاقبال والربح . وهذا يهيىء من طريق غير مباشر اعمالاً جديدة للعمال المتعطلين وهو ما حدث فعلاً في صناعة السيارات بتأثير فورد على الاكثر . واذا احتفظ المنتج بالسعر ولم يتسع نطاق الاعمال ، ولا تبادل المصنوعات ، فلا تتاح للعمال المتعطلين فرص جديدة للعمل فيحسن بالحكومة حينئذٍ أن تتدخل في الامر

غفران

لعدنان مردم بك

لك شافعٌ من مهجتي ولساني ما زال يعبث بي بسحر بيان
أجد الاساءة منك غير أليمة حين المدامع تستفز حناني
كم هوّن الخطب الجليل على امرئ ودُّ اليقين وراحةُ الوجدان
اني اذا ما شئت هجرك عامداً ضرع الفؤاد وسخّت العينان
وتجرد الماضي السحيق لناظري فأكاد ألمسهُ على أجفاني
لا توقدي نار الاسى في أضلعي بالذكريات وتوقظي أشجاني
لم ألق مثل الذكريات لمسرهق أدعى الى الاشجان والأحزان

***

مالي أراك كنائحٍ في مأتمٍ لا يستقرُّ من الوجى بمكان
ألّفت تلفّت لا يرى من مأمنٍ هيهات يظفر خائف بأمان
لجم العياءُ لسانه حتى غدا لا يستطيع إشادة بلسان
ويكاد يلمس من هواجس نفسه وظنونه شبح الرّدى ببنان
تتململين كذي السقام وللاسى أثر الجفون ضراعة الولهان
أكبرت حسنك أن يشين وقارَه ذلُّ الضراعة أو ...
كأس البغايا لا تلذ لشارب أو تشتهى لحصافة الأثمان
والحسن لولا الكبرياء يزينه ما كان مطمح ناظرٍ وجنان

***

إني اذا ما أمكنتني فرصة من ظالمٍ وقرعتهُ بسنان
غلب الحنان على العداء ولم يعد في الصدر يحضرني سوى الاحسان
سر السعادة أن تمدَّ لظالمٍ يد راحمٍ وعنَّ بالغفران
بدع الحنان لظالمٍ أوزاره ولكم أقال الدمع عثرة جان

خصائص

التفكير الفرنسي

لعثمان أمين
مدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب

﴿ مقدمة ﴾ — البحث في خصائص التفكير الفرنسي مسألة جديرة دائما بالعناية ، وخصوصاً في الأحوال التي تجتازها البلاد المصرية ، وفي الوقت الذي يجمل أن يضع الكتاب والمفكرون أمام أعين الناس أنماطاً ونماذج مختلفة للتفكير في البلاد الأجنبية ، لعلنا نهتدي بها في تدعيم قواعد صالحة لبناء تراث فكري مصري أصيل

ولكنا مضطرون قبل أن نعالج هذا الموضوع ، الى أن نلاحظ بعض الملاحظات الضرورية التي تفرضها علينا صعوبة البحث نفسه :

أولاً : أن محاولة تحديد الخصائص الفكرية عند شعب من الشعوب شيء عسير في ذاته ، ولا تخلو احكامنا فيه من تعسف وتحيز ، وهو على كل حال أمر يفلت من متناول الدقة العلمية ، ولا نطمع في أن نصل من ورائه الى قوانين ثابتة أو أحكام مطلقة

ثانياً : انه ليس من مفكري الفرنسيين من رضخ لفكرة واحدة أن افكاره ونظرياته معرض للخصائص والاتجاهات العقلية لأمته وحدها . وليس منهم من حكم بان هنالك شعباً مختاراً للفلسفة والتفكير ، وانه ينتمي الى ذلك الشعب . بل جميعهم كانوا يعتقدون أو كانوا يريدون أن يفكروا أو ان يتفلسفوا ليظفروا لا بحقيقة قومية أو وطنية ، بل كانوا يفرضون دائماً ان افكارهم ونظرياتهم يمكن أن تسير وأن تذيع حيث وجد عقل بشري يتفهمها ، وحيث وجدت شواهد انسانية تضبطها وتحققها . ولو فرضنا أن أحداً قال في مفكري الفرنسيين وفلاسفتهم بأنهم نظرياتهم وأفكارهم يمثلون العقلية الفرنسية أو يمثلون روح أمتهم ، فهل كانوا يحملون ذلك الكلام على محمل المدح ؟

كلا ما نظن ذلك . بل أكبر الظن أنهم كانوا يعترفون بأن الشعوب كالأفراد لها بعض الخصائص والنزعات العقلية . لكنهم كانوا يحتجون بأن شروط المعرفة في ذاتها انما تحد من مهمة تلك العناصر العامضة غير المعينة التي تتألف منها عقلية من العقليات . أليست الحكمة

الأولى في الفلسفة عند ديكارت هي قوله بأن العقل أو ملكة الحكم السديد مقسمة بين البشر قسمة عادلة ، وأنصبة الناس منها متساوية ، ولا فضل فيها لأمة على أمة ؟

جميع هذه الاعتبارات مهما يكن من وجاهتها لا تحول دون معالجة الموضوع ، فإنا نعتقد أنه يبقى على الرغم مما ذكرنا أن التفكير الفرنسي في جملته يبدو للمؤرخ المنصف وكأن له طابعاً خاصاً يميزه عما عداه . وهذا الطابع الخاص يدل على أن نزعات قومية هي التي صورته وتعهدته حتى كمل نماؤه وبسق فرعه وامتد ظله

وإذن فسنحاول في الصفحات التالية أن نبين ما عسى أن يكون للعقلية الفرنسية من خصائص أثرت في اتجاهات التفكير الفرنسي بوجه عام

ولكن قبل أن نفحص عن خصائص التفكير الفرنسي ونزعاته ، يجمل بنا أن نلقي نظرة سريعة على ما يحيط بذلك التفكير ، لكي يتسنى لنا معرفته ووضعه في منزلته الخاصة . وسنسلك في بيان ذلك سبيل الموازنة الاجمالية بين اتجاهات التفكير الفرنسي وبعض الاتجاهات الرئيسية الأخرى ذات الأثر في الحضارة العقلية الحديثة

﴿ العقلية الانجليزية ﴾ — العقلية الانجليزية عقلية واقعية ، دقيقة « وضعية » مضبوطة . ولكنها لا تخلو في بعض الأحيان من ضيق الأفق . ولذلك وجدناها وقد استطاعت ، منذ القرون الوسطى حتى العصور الحديثة بلا انقطاع ، أن تبسط تلك الفلسفة التجريبية المشهورة التي تلتزم التجربة المتداولة اليومية ولا تحيد عنها . ومن أجل ذلك رأيناها وما كان أسرعها الى الانسياق في تيار التشكك والارتياب ، فلم يعصمها منه إلا إيمانها بالعمل وما له من قيمة وأثر في الحياة ، ورأيناها أيضاً ترحب بمذهب « البراجماتزم » الاميركي ، ذلك المذهب الذي يعنى بمسائل التطبيق والعمل ويقدمها على مسائل التأمل والنظر

﴿ العقلية الالمانية ﴾ — أما العقلية الألمانية فعقلية مبتافيزيقية عميقة بلا نزاع . ولكنها عقلية ميّالة الى المذاهب الصافية ، ميلها الى الغلو في المجردات . وسلوك الطرق الملتوية . ولذلك رأيناها وقد طاب لها البقاء على مذهب « الايديالزم » ، ذلك المذهب المثالي التصوري المتعالي الذي يجعل من الكون على نحو ما شيئاً خلقه الانسان وأبدعه الفكر الانساني ، ومعنى هذا عندها في أغلب الأحيان : الفكر الالماني

لننظر الآن في الخصائص التي تميز بها التفكير الفرنسي

١ — ﴿ القصد والاتزان ﴾ : لعلّ من اظهر خصائص العقلية الفرنسية اتزان القوى واعتدال الملكات المتعارضة من ملكات النفس البشرية : فالفرنسي ذو ذهن تحليلي يميل الى المنطق . ثم هو ذو ذهن تأليفي ، يؤلف بين المثالي والواقعي ، ويجمع بين القدرة على العمل والنزوع الى التأمل والنظر ، ويؤلف بين جرأة الفكر وحرارة الشعور ، ويضيف الى تقديس

«الوضعي» الذي لا يقبل شيئاً من دون نقد أو تمحيص ، مع اصطناع البحث دائماً لامتحان الوقائع ، الاعتقادَ الراسخ والايمانَ المتقد بالحقائق الروحية التي تدعو الانسان دائماً الى ان يتخطى الطبيعة ، وبى أن يجاوز نفسه ساعياً وراء الحق والخير والجمال

كل ذلك يبدو لمتأمل منسجماً ماثلاً في الفكر الفرنسي . وذلك كله حيّ واضح في آثار تلك النفس الفرنسية وهو الذي أوحى الى «ديكارت» ان يكتب « المقال في المنهج » والى « باسكال » ان يكتب « الخطرات » ، كما أوحى الى « باستير » أعماله الباهرة والى الفنانين الفرنسيين آثارهم الرائعة

فالذي يلاحظ إذن عند مفكري فرنسا هو التئام ناحيتين قيّمتين قلّ ان تجتمعا في شخص ولكنهما مع ذلك تميزان العقلية الفرنسية اذا توافر لها الاتزان والاعتدال : — الصفة الاولى هي ادراكهم لمعنى « الوضعي » ، وذلك عبارة عن عناية المؤلف بأن يبقى على اتصال بالواقع لا يبتعد عنها ، وحرصه دائماً على أن يقرن القواعد بالتجربة . ولقد أرادت الفلسفة الفرنسية أن تحمي نفسها من الأحلام والأوهام ، فاتصلت بالعلوم الوضعية أوثق اتصال . وهذا هو السبب ان أغلب كبار الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين كانوا ، مع اشتغالهم بالفلسفة ، إما علماء هندسة او علماء طبيعة او اطباء او رجال أعمال وصناعات معينة . — أما الصفة الثانية فهي ادراكهم لمعنى المثل العليا ، وايمانهم بحقيقتها . وهذه الصفة عبارة عن ملكة التمييز الروحي ، والاشتغال بشؤون الاخلاق وأسسها الميتافيزيقية . ولقد رأت الفلسفة الفرنسية ، حتى عند الوضعيين أنفسهم ، ان العلوم الوضعية غير كافية ، وأن العلم ، بدون الذهن الذي يفسره تفسيراً فلسفياً ، يظل ناقصاً مهما يكن من قوته في مجاله الخاص . ومن أجل هذا وجدنا من كبار علماء الفرنسيين من يكتبون مخترعاتهم ومكتشفاتهم بتأويل العلم الذي يدعو فيه تأويلا فلسفياً . ولا حاجة بنا الى أن نذكر في هذا الصدد « كلود برنار » في الطب التجريبي ، و« هنري پوانكاري » في الرياضيات . على ان معنى « الوضعي » ومعنى المثل الأعلى معنيان يكمّل أحدهما الآخر . وهما يمشيان جنباً الى جنب عند مفكري الفرنسيين ، بل يسيران عندهم صديقين متحابين في ظل العقل أو ملكة الحكم السليم

٢ — « الحكم السليم » عابوا على الفرنسي شدة شغفه بالمنطق ، كما عابوا عليه انه تعوزه الحرارة الصوفية . وانه يريد دائماً أن يعرف على وجه التدقيق لمَ يعمل وليمَ يناضل وليمَ يموت . وربما كان هذا عيباً مفصلاً في الفرنسيين . ولكن على كل حال تقابله مزية أصيلة اختصت بها فرنسا . وهي ما يسمى بالفرنسية « bon sens » أو ملكة الحكم السليم ، وهي تلك الملكة العامة التي يضعها الفرنسي في خدمة المثل الأعلى ، وهي عبارة عن القدرة على صحة

الإحساس بالحقيقة الكاملة ، والحكم على الأمور أحكاماً سديدة ملائمة لصريح العقل ، وهي أخيراً الحدس الصائب في ما هو موجود، وما هو حق، وما هو خير . وميتافيزيقا الفرنسيين قائمة على الحكم السديد : وهذا ما يجعل لها قوة لا تُبارَى

وليست عبقرية الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين إلا كمثل ذلك المعنى الذي نجده متجلياً عند فلاحي فرنسا ، منموساً في أمثالهم اليومية . ويخطر ببالي في هذا المقام كلمة لكاتب فرنسي معاصر هو « جان جيرودو » إذ قال يوماً : إن الثانيا لها « جوته » ، ولكن موطن الحرك ببلدة « كركيران » في « البروفانس » هو جوته !

أراد « جيرودو » بهذه الكلمة المختزلة التي لا تخلو من مفارقات أن يعبّر عن هذه الفكرة : وهي أنه اذا كان القصد والتوازن في الثانيا من أندر الأمور ، فانهُ في فرنسا كثير مألوف . ففرنسا منذ زمن طويل هي بلاد الحكم السديد الذي تحدّث عنهُ فيلسوفها ديكارت وأشاد به أيما إشادة . والحق ان من أتيحت له الفرصة لأن يخاطب الناس في تلك البلاد عجب من ذكاء الجمهور واعتدال أحكامه ، وإصابة نظراته : الجمهور هناك يكاد أن يفهم كل شيء ، ويكاد أن لا يغيب عنهُ شيء من دقائق الأمور ، والفرنسي حيوان ناطق بمعنى الكلمة !

٣ — ﴿ البساطة والوضوح ﴾ ولعلّ من أهم الصفات التي أصبحت عنواناً للعقلية الفرنسية مبلغها الى التماس الوضوح . ومن خصائص التفكير الفرنسي منذ نشأته حرصهُ على تحليل الأفكار ، بل وتحليل المشاعر ، الى عناصر واضحة متميزة ، وميلهم في التعبير عنها اللغة المتداولة الجارية . ولذلك وجدنا أكثر الفلاسفة الفرنسيين من كبار الكتّاب قد استطاعوا أن يعبروا عن الأفكار الواضحة في لغة واضحة

ومن هنا كان أول ما نلاحظهُ حين نقرأ كتاباً فلسفياً فرنسياً هو بساطة الأسلوب وسهولة العبارة : وهذا قد استثنينا « اوجست كنت » وعدداً قليلاً من المفكرين في النصف الثاني للقرن التاسع عشر — وهؤلاء انما خضعوا لتأثير ألجبي فبعدوا عن الوضوح الفرنسي الموروث — استطعنا أن نقول قولة « هنري برجسون » : ان الفلسفة الفرنسية قد سارت دائماً على وفاق مع مبدأ القائل : « ليس هنالك فكرة فلسفية مهما يكن حظها من العمق والدقة إلا ويستطاع ، بل ويحسن ، التعبير عنها بلغة الناس المتداولة البسيطة » . وليس هذا رأي الفلاسفة الفرنسيين وحدهم ، بل هو أيضاً رأي الجمهرة من كتّابهم . قال « بوالو » :

« ان ما أجدنا تصوره استطعنا أن نعبر عنهُ تعبيراً واضحاً »

« وجاءتنا الألفاظ المعبّرة عنهُ طائعة مختارة »

Ce que l'on conçoit bien s'énonce clairement.
Et les mots pour le dire arrivent aisément.

فالكتّاب الفرنسيون يتوخون الوضوح دائماً ، وهم لا يعتقدون انهم بهذا يحطون ، أو يستحقون ما قد يرميهم به بعض خصومهم من أنهم سطحيون ! لأنهم لا يأخذون بذلك الوهم الذي استولى على بعض الناس ، فجعلها تقيس عمق الفكر بغموض التعبير . والواقع ان الفرنسيين على حق : فليست كل المياه المعكّرة بالطين مياهاً عميقة ، ولا كل المياه الصافية مياهاً سطحية !

وبفضل الوضوح في الفكر والعرض ، استطاع مفكرو الفرنسيين أن يقرّبوا من متناول كل انسان مثقف ، أرفعَ الأفكار في العلم وفي الميتافيزيقا ، وأعمق المعاني والقواعد في علم الاخلاق . واذا كان من اللازم لتقدير ما في فكرهم من عمق ، ولتفهمه حق التفهم ، أن يكون القارىء على دراية بشيء من الفلسفة أو العلم ، فانهُ ليس من رجل مثقف إلاّ ويستطيع أن يقرأ أهم مؤلفاتهم وأن يفهمها وأن يصيب منها نفعاً

والفلاسفة الفرنسيون حين احتاجوا الى وسائل للتعبير جديدة ، لم يصنعوا ما صنع البعض في بلاد أوروبية أخرى حين أكثروا من خلق المصطلحات الجديدة ، بل عمد الفرنسيون الى التأليف بين الكلمات المستعملة تأليفاً يعطي تلك الكلمات معاني جديدة . وهذا يفسر لنا كيف أن ديكارت وبسكال وروسو قد زادوا في قوة اللغة الفرنسية ومرونتها ، سواء كان موضوع أقوالهم الفكر أو الشعور

ونحن مضطرون أن نلاحظ مع « هنري برجسون » ايضاً ان تعقيد اللفظ وغموض الصورة والالتجاء الى المصطلحات الخاصة ، كل ذلك يكاد أن يكون دائماً « في منزلة القناع يلقيه المؤلف على فكر لم يوفق بعد الى أن يستبين ذاتهُ تمام الاستبانة » والفكرة التي استطاع صاحبها أن يهيمن عليها لابد أن يعبر عنها بسهولة وبساطة . وهذه القاعدة صحيحة حتى في الافكار الميتافيزيقية العميقة

٤ — ﴿ الى الجمهور ﴾ ذلك ان مفكري الفرنسيين لا يكتبون عادةً لطبقة من المتخصصين ، وانما يتوجهون الى الجمهور ، بل الى الانسانية عموماً . ولقد فتحت الفلسفة الفرنسية دائماً بأن تتكلم لغة الناس الشائعة ، فلم تكن امتيازاً لطبقة دون أخرى ، بل ظلت خاضعة لمراقبة الجمهور ، كما ظلت على اتصال مستمر بالعلوم وبالحياة . فمارسها رجال كانوا علماء نفس ، وعلماء حياة ، وفيزيقيين ورياضيين . وهذا الاتصال المستمر بالحياة وبالعلم وبالجمهور وبالحسّ العام قد بثّ فيها خصوبة ، كما منعها من أن تلهو مع نفسها ، ومن ان تكتفي بتأليف الأشياء بتصورات ومجردات ، كما هو الحال في بعض الفلسفات الأخرى . وبهذا نفسر الأثر الذي كان لمفكري الفرنسيين ، لا في فرنسا وحدها ، بل في الانسانية

بأسرها ، وبه تفسر ما في مذاهبهم من قوة التنوع ، وتفسر لم توجد فلسفة تفوق الفلسفة الفرنسية في شمولها على عناصر بشرية عامة

٥ — ﴿ التفور من المذهب ﴾ وطبيعي أن نرى الفكر الفرنسي الذي كان دائم العناية بالقصد والاتزان كما قلنا ، يتوجس من كل ضخامة وجمود . نجد في بعض البلاد الاوربية الأخرى ما يشبه المغامرات المنطقية والمجازفات الجدلية . لكن الفكر الفرنسي انما أراد أن يكون صديقاً مخلصاً للكلي وللعام ، ولكن في صورة الفكرة المرنة الحرة

من أجل هذا قلما نرى عند الفرنسيين فلسفات نشأت اجابة عن مشكلات متصورة في مذاهب . والمذاهب المغلقة قليلة في الفلسفة الفرنسية . ويلحظ ان فلاسفة الفرنسيين اذا كانوا ميالين الى المنهج ، فهم قليلو الميل الى المذهب : فتراهم لا يحبون أن يجعلوا من البناء الذي يقيمونه بناءً مغلقاً ، يدخل فيه كل شيء اختياراً أو اضطراراً كما هو الشأن عند الميتافيزيقيين من الالمان

ومفكرو الفرنسيين ، اذ يشعرون برسالتهم الاجتماعية ، لا يركنون الى تكاثف اقامة المذاهب ، بل يميلون الى نقل الفلسفة الكامنة ، فلسفة الامة ، تلك الفلسفة المؤلفة من خواطر العالم والفنان ورجل الاعمال والصانع ، وتفكير جميع من كان لهم تجربة مباشرة للحياة وللاشياء . ولذلك نجحوا في ان يكونوا في سلوكهم تعبيراً من التعبيرات التي تمثل النزعات الفرنسية والنزعات الانسانية معاً

وكما تنفر العقلية الفرنسية من ان تلبس ثوب المذهب ، نجدها تنفر من ان تتخذ صورة « الدجماطيقية » ، اي التعيين المتعصب الذي يريد أن يعرض الرأي على الناس فرضاً ، كما أنها تنبذ الامران في التشكك والارتياب : فنهجها بعيد عن منهج « هيل » بعده عن منهج « كانت »

وليس معنى هذا ان الفلسفة الفرنسية عاجزة عن أن تشيد اذا ارادت ، بناءً شامخاً . بل لعلَّ فلاسفة الفرنسيين رأوا ان اقامة المذهب شيء يسير : اذ ان من اليسير الذهاب بالفكرة الى غايتها القصوى . لكن الصعوبة انما تكون في الوقوف بالاستنباط حيث ينبغي أن يقف ، وفي توجيهه كما ينبغي . بفضل تعميق العلوم الخاصة والاتصال المستمر بالحقائق . قال « بسكال » : ان « روح الهندسة » لا تكفي الفيلسوف ، وينبغي أن نضيف اليها « روح الدقة » : وروح الهندسة هي روح الاستدلال المنطقي المحض . أما روح الدقة التي يريدها « بسكال » فهي فن من الفنون ، هي فن تفسير الحقيقة بالتوفيق بين مبادىء متذاكرة في الظاهر ، ثم هي ادراك النظام الذي يتجاوز الاستدلال المجرد ، وهي فن تمييز الحدود التي

يجب على المنطق أن لا يتعداها . إن ديكارت ، ذلك الميتافيزيقي الكبير ، صرح بأنه لم يكن يفرغ للميتافيزيقا الا ساعات قلائل في العام : يريد بذلك ان البناء الميتافيزيقي والبناء المنطقي عملان يتمان عفواً وطبعاً ، ما دام الانسان مستعداً لهما

قد يقال ان الفلسفة اذا بعدت عن بناء المذهب بعدت عن قصدها ، وأن مهمتها هي التأليف بين الحقائق . لكنا نقول إن الفلسفة الفرنسية لم تعدل قط عن ذلك التأليف ، ولكنها لا تميل الى ذلك النحو من التعسف الشائع عند الالمان مثلاً ، وهو عبارة عن اخذ هذه الفكرة او تلك ، ثم ادخال مجموع الأشياء فيها بالرضى أو بالقهر : اذ ان من الممكن دائماً ان نعارض تلك الفكرة بأخرى لنستطيع بها ان نبني ، وفقاً المنهج نفسه ، بناء مخالفاً ، ويكون المذهبان كلاهما مقبولين على السواء ولا يسهل التحقق من صحتهما . فتصبح الفلسفة بهذا المعنى لهواً وعبثاً بين الكتّاب والقراء

٦ — ﴿ ملكات بشرية ﴾ صحيح ان مفكري الفرنسيين وفلاسفتهم قد يجعلون الصدارة في تفكيرهم للعقل او للتجربة او للشعور او للحدس ، الا أن الملكات التي يعمدون اليها في اقامة مذاهبهم ليست ملكات مفارقة للطبيعة ولا متعالية عن البشر ، وانما هي ملكات معيارها في الادراك الانساني الذي يشترك فيه الناس جميعاً . وهذا ديكارت أبو الفلسفة الحديثة لا يصد عن قراءته احداً ولو لم يكن من المتخصصين في الفلسفة : ذلك لأن الفيلسوف لا يسير من حدس محوط بالأسرار ، ولا من إلهام مليد بالغيوم ، ولا من عرفان هبط عليه من السماء ، فطلع هو به على الناس مبرأ عنه بالملاحن والرموز ، بل سار ديكارت من حدس بيّن واضح هو حدس « النور الفطري » ، نور العقل الذي هو « أعدل الأشياء قسمة بين البشر »

٧ — ﴿ الملاحظة الباطنية ﴾ ومن الصفات الثابتة عند مفكري الفرنسيين ميل كتّابهم الى علم النفس واتجاههم الى المشاهدة الباطنية . فبينما نجد كبار فلاسفة الالمان ، حتى « ليبنتز » و « كانت » ، لم يُظهروا ميلاً كبيراً الى علم النفس — ما عدا « شوبنهور » وهو الميتافيزيقي الالماني الوحيد الذي كان عالماً نفسياً تجدثي الصدّ من ذلك انه ليس من فيلسوف فرنسي الا وقد تجلت فيه عند الضرورة القدرة على اختبار النفس الانسانية ومشاهدتها . ولا حاجة الى اطالة القول في الدراسات النفسية الدقيقة التي نجدها عند « ديكارت » وعند « مالبرانش » ، ممزوجة بنظراتهم الميتافيزيقية . ونظرة « كندياك » لم تكن أقل حدّة ونفاذاً الى الجوانب الخفية من النفس منها حين كانت تُلقى على الاشياء الطبيعية والهندسية والفلسفية . ولقد كان « كوندياك » عالماً نفسياً كما كان من المناطقة . وماذا نقول إذن عن أولئك الكتّاب الذين فتحوا للتحليل النفسي طرقاً جديدة مثل « جان جاك روسو » و « مين

« دوبيران » ؟ ففي أبان القرنين السابع عشر والثامن عشر شُغِل الفكر الفرنسي بمشاكل الطبيعة، فمهد لقيام الابحاث النفسية العلمية التي كانت فيما بعد من آثار القرن التاسع عشر. ونحن نجد من أشهر ممثلي علم النفس الخالص في عصرنا الحاضر فرنسا « هنري برجسون » وهو في الوقت نفسه فيلسوف كبير

فهذه الملكة الخاصة التي بها يحلو الكاتب ما بالأشياء من تعقيد وتركيب، ويصف ما بالحياة الباطنية من حركات عميقة، لم تفارق الأدب الفرنسي بوجه عام. ونستطيع ان نذكر مع « المقالات » لمونتني، و « انفعالات النفس » لديكارت، و « الاعترافات » لروسو، كثيراً من الكتب السيكولوجية الفلسفية والعلمية التي خلفها الاخلاقيون الفرنسيون. والواقع ان هذه المقدرة التي يصل بها الكاتب الى نفس الانسان في أعمق أغوارها، ليكشف ما تنطوي عليه من بواعث ونزعات، قد مارسها الفكر الفرنسي بمهارة جديرة بالاعجاب، وهذا مما يفسر بعض خواص العقلية الفرنسية واتجاهاتها: اذ ان معرفة النفس هي في منزلة قوة للنقد بازاء النظريات التي تقوم في المجردات، والتي تذهب مسرفة في فضائها بقدر خلوها من المعاني الحية المشخصة

٨ — ﴿ الحرية ﴾ والصفة الكبرى المميزة للروح الفرنسية والتي تتجلى عند مفكريهم وفلاسفتهم بصورة رائعة هي ايمانهم بأن الانسان حر وانه يمارس تلك الحرية بالفعل. ولا حاجة بنا الى بيان ما أدته فكرة الحرية هذه من دور هام، لا في تاريخ فرنسا وحدها، بل في تاريخ الشعوب والمدنية. وهذا ديكارت لا يخشى ان يذهب في هذه السبيل الى أبعد حدود النظرية، فنراه يطالب للانسان بالحرية باعتبارها امتيازاً خاصاً به، أو ان شئنا باعتبارها أهم صفة عند الانسان تكاد ان تجعله من أنداد الله

٩ — ﴿ الروحية ﴾ والعقلية الفرنسية أينما تفتحت وازدهرت، تجلت للناس غالبة روحية. ولقد كانت الروحية دائماً طابع فرنسا الخاص، قد تحتجب حيناً في أعماق الضمائر التي يلهيها عنها اليومي، وقد يثقل بها وأدها حيناً في النفاق اثر العنيف لضغط الأفكار، ولكنها أحياناً كثيرة أخرى روحية مشرقة رفيعة. والروحية عند الفرنسي كامنة وموجودة دائماً، حتى حين يبدو وكأنه يتناساها. واتجاه التفكير الفرنسي في صميمه اتجاه روحي

على ان الروحية الفرنسية شيء بعيد كل البعد عن « الايديولوجيا » النصورية المجردة المتكبرة. ولذلك كانت العقلية الفرنسية، هي أيضاً كالعقلية الانكليزية، عقلية واقعية بأجل ما لتلك الكلمة من معان

واثبات الروح ليس انكاراً للمادة. بل هو بالعكس تحديد لمهمة المادة، حتى ليصح أن

يقال بأن هنالك الى جانب المادة وفوقها مبدأ يستخدمها ويهيمن عليها . فالمادي منكر للروح، لأنه منكر للحق ، إذ يراد هو القوة ، أما الروحي فلا ينكر المادة ، بل يخضعها للروح . وكذلك المفكر الفرنسي يعترف بوجود القوة وسلطانها . ولكنه يحاول أن يخضعها للحق

ولما كانت الصفة الكبرى من صفات التفكير الفرنسي هي كما قلنا الاتزان واصابة النظر ، فقد كانت عقلية فرنسا متزنة عادلة، تسعى الى أن تضع كل شيء في موضعه ، وان ترد الامور الى نصابها : المادة في مرتبة الخادم ، والروح في مرتبة السيد الآمر . وذلك هو السبب في أن تلك العقلية المتزنة هي أولاً عقلية روحية

١٠ — (خاتمة) تلك بعض الصفات التي تبدت لنا ممثلة للتفكير الفرنسي في جملته . واليوم وقد بلغت الانسانية من تاريخها ساعة الفجيعة الفاصلة ، والآن وقد وُضعت بين الله والحيوانية فواجب عليها أن تختار أحدهما دون الآخر

فإذا كان الأشرف يصدر عن الأخس ، والأكثر يأتي من الأقل ، أي اذا كانت الحياة تأتي من المادة ، والروح من الحيوانية ، لم يكن الله إلا صنماً ، ولم يكن الانسان إلا حيواناً تطوَّر، وكان مصيره مصير البهيمية ، وكان ما له الفوت المحقق ، واذن فقد أصبح وجودنا كله محبوساً في الحياة الراهنة وجوهرنا محصوراً في حدود الحيوانية

وذلك هو المآل الذي تجرّنا اليه بعض الاتجاهات الفكرية الحديثة المخالفة مخالفة صريحة لاتجاهات الفكر الفرنسي على نحو ما وصفناها . ألسنا نرى بعض مذاهب التفكير الاوروبية الأخرى وقد أحلت « التصورية » محل الروحية و « الصيرورة الابدية » محل الخلق ، والروح اللافردية محل النفس الفردية — ألسنا نراها قد أفضت الى انكار الله ، والى تأليه القوة الغشوم ، والى تقديس حاجات الابدان ؟ وأليست بهذا قد انحطت الى مستوى الحيوانية الصرفة وأربت في ذلك حتى على قدماء الدهريين والوثنيين ممن كانوا يعبدون الطبيعة ومظاهرها ؟

ولكنا اذا اعترفنا مع المفكر الفرنسي بأن الأكثر لا يمكن ان يأتي من الاقل ، وان النظام لا يصدر عن الاضطراب ، ولا العقل عن الآلية ، ولا الانسان عن الحيوان ، اذن لوضعنا في أصل كل شيء وفي أصل وجودنا ، مبدأ الكمال والحق والخير ، وهو الله ، واذن لأصبح للانسانية معنى ، اذ تتجاوز الحيوانية بالعقل والحرية ، وتعمل عليها علواً لامتناهياً

وواجبنا ان نستعمل ذلك العقل وتلك الحرية لنتخلص ما وسعنا من الحيوانية ، ولكي نرقى حثيثاً الى الله ، لان كرامة الانسان انما تكون في ذلك الجهد الموصول نحو اللامتناهي ونحو الكمال

حكمة المناظرة

قيل انّ السيد الجرجانى تناظر مع السعد التفتازانى بمجلس خاص . وكان السيد شاباً حديث العهد . وكان السعد شيخ العلماء فى وقته ، فالتمس المجلس بأن السعد أقرّ للسيد وان السيد فلج على السعد أمام ذلك الجمهور . فساء ذلك تلاميذ السعد . ولما انصرف الناس قالوا لاستاذهم : ما كان ينبغى لك أن تسلم لرجل نصف سنّ أحد تلاميذك فأجابهم وماذا أصنع اذا كان الحق معه . فقالوا له : قد كان يمكنك أن تقول له كيت وكيت فى الجواب . فقال لهم ولكنه يقول مثلما وكان يعلم من العلم فى شىء فقالوا له : لكن الناس قد علموا ان السيد أعلم منك . فقال لهم : أحب الىّ أن يعلمنى الناس بانهم وان يعلمنى السيد وحده علماً

النقل الجوي

في أثناء الحرب وبعدها

قلّب النظر في شؤون الحرب كما تشاء ، فانك حتماً واقع في آخر الأمر على مشكلة النقل . فالغواصات الألمانية تنتشر في البحار ، لكي تعرقل سير القوافل التي تعتمد عليها الدول المتحدة ، في حشد قوتها الحربية ، في ميادين بعيدة ، عن بريطانيا والولايات المتحدة ، وبعيدة بعضها عن بعض . والقاذفات البريطانية تتوخى مصانع القاطرات وحقد المواصلات في المانيا والبلدان المحتلة ، ولا تني المستكشفات الجوية والبحرية عن استطلاع سواحل اوربا لمهاجمة السفن الألمانية المتسللة على محاذاتها من ثغر الى ثغر ومن جون الى جون . ومهما تتعدد أوصاف هذه الحرب ، فلا بدّ ان يكون وصفها بأنها « حرب مواصلات » في طليعة الأوصاف جميعاً . واذا كان الألمان قد اعتمدوا في مراحل مختلفة من هذه الحرب ، على نقل الجنود بالطائرات ، كما فعلوا في أثناء غزو النرويج وكريت ، وفي الميدان الشرقي ، فإن المسافات البعيدة بين الولايات المتحدة او الجزائر البريطانية من جهة ، وبين ميادين الحرب النائية كاستراليا والشرق الأوسط من جهة أخرى ، تجعل الاهتمام بالنقل الجوي ، في رأي بعض الخبراء ، أمراً لا مفرّ منه لأن السفن بطيئة في اجتياز أثوف من الأميال بسرعة عشرة أميال في الساعة أو اكثر قليلاً ، بينما الحاجة في بعض الأحيان الى تعزيز القوات المتحدة في موقع ما ، على جناح السرعة

وهذا الرأي ، هو الذي حمل « كيزر » الاميركي صانع العجائب في بناء سفن النقل ، على ان يقترح على الكنغرس الاميركي والأمة ، تحويل جانب من دور الصنعة التي أعدها لبناء السفن ، الى مصانع تنشئ سفناً جوية كبيرة ، تنتقل ما تستطيع السفن نقله ، في نحو عُشر الوقت ، وبغير التعرض لخطر الغواصات . ومن الأمثلة التي ضربها ، ليستوقف العناية الرسمية والعامة بمقترحه ، انه اذا صنعت خمسة آلاف من هذه السفن الجوية التي يقترحها فانها تنقل في أربع وعشرين ساعة جيشاً اميركياً الى بريطانيا يعد نصف مليون ، أو ما يعادله وزناً من جميع أصناف الأسلحة الخفيفة والضخمة على السواء

وقد يكون في هذا القول شيء من الغلوّ ، ولكنه أدنى الى الغرض المقصود وهو حمل

الحكومة والشعب في الولايات المتحدة ، على العناية بهذا الموضوع وما له من شأن في سير الحرب . والمرجح ان طائفة من هذه السفن الجوية تبنى في الولايات المتحدة الآن ، وان كان نطاق بنائها أضيق مما اقترحه كيزر على ما يُعلم

وعلى كل حال في الولايات المتحدة طائرتان ، او سفينتان جويتان ، تصلحان مثالاً لما يبغيه الخبراء ورجال الحرب على السواء . فثمة اولاً الطائرة الموسومة « دَغلس ب ١٩ » Douglas B-19 وهي طائرة تبلغ المسافة بين طرفي جناحيها ٢١٢ قدماً ووزنها فارغة ٨٣ الف رطل أي نحو ٤١ طنًّا ، وتستطيع أن ترفع في الجو وهي ماضية بسرعة ٢٠٠ ميل في الساعة حملاً يبلغ ١٦٤٠٠٠ رطل أي نحو ٨٢ طنًّا ومداها يفوق سبعة آلاف ميل . وثمة ثانياً الطائرة المائية التي تصنعها شركة مارتن وقد وسمت باسم اله الحرب (تاريخ Mars) وهي تعدل في حجمها حجم الطائرة التي تقدم ذكرها ، وتسير بأربعة محركات قوة كلٍّ منها الف حصان . وقد لا تجاري الطائرة الأولى في سرعتها ، ولكنها تفوقها قليلاً في الحمل الذي تحمله إذ ليس لها عجلات ، وهي مما لا غنى عنه في الطائرة البرية للحطّ على الارض والدرج عليها قبل الوقوف . وقد ارتقت صناعة الطائرات الضخمة ارتقاءً عظيماً بفضل ما أسفرت عنهُ محاربة الحرب من عبر ، ولكنّ هذه العبر لم تدمج جميعاً في بناء هاتين الطائرتين حتى الآن . فلنعمد الى الخيال القائم على العلم لتصوُّر طائرة النقل التي في الوسع صنعُها فتكون أفضل مما عرف حتى الآن

ولكن قبل أن ننظر في أوصاف هذه الطائرة يتعين علينا ان نُلقي نظرة على الحقائق الجغرافية التي لا بدَّ من عمل حساب لها في النقل البحري والنقل الجوّي على السواء . ولنفرض ان الولايات المتحدة تريد ان تعزّز قواتها في ميداني استراليا والشرق الاوسط . فالمسافات الطويلة التي تفصل هذين الميدانين عن الولايات المتحدة ، ترهق قدرة الأسطول على توفير السفن اللازمة لقطعها بحمولة الماء ، وهي موسوفة بسقاً عزيزاً حيويًّا ، بحاراً تشرب فيها القوّات . وعلى هذه السفن ان تصل الى طيّتها على أسرع وجه مستطاع . ولكنها بطيئة بطبيعة الحال . فاذا كانت السفينة في قافلة معدّل سرعتها عشرة أميال في الساعة فانها تستغرق شهرين تقريباً في اجتياز مسافة ١٢ الف ميل من ساحل الولايات المتحدة الشرقي الى خليج ايران أو البحر الاحمر ملتفة برأس الرجاء الصالح . وتستغرق ثلاثين يوماً لاجتياز المسافة بين ساحل الولايات المتحدة الغربي ومدينة سدني باستراليا . فسرعة معدّلها عشرة اميال في الساعة ، مرادفة للبطء العظيم عند ما تكون المسافات بعيدة هذا البعد . وليس ثمة ريب في ان النقل بالسفن الجديدة التي تبلغ سرعتها ستة عشر ميلاً بحريًّا في الساعة ، تستغرق وقتاً اقلّ

فتستطيع هذه السفن ان تقلع من موانىء الولايات المتحدة الغربية وتصل استراليا في عشرين يوماً ، أو أن تقلع من موانىء الولايات المتحدة الشرقية وتصل الى منطقة الشرق وسط في خمسة وثلاثين يوماً . ومع ذلك تبقى المدّة التي تستغرقها هذه السفن في الوصول الى هذين الميدانين من ميادين الحرب طويلة ، حتى اذا فرضنا ان سرعتها تمكنها من تجاهل خطر الغوّاصات . والوسيلة الوحيدة للتغلّب على هذه المسافات ، انما هي الاعتماد على النقل الجوّي

ان الحرب أكبر أستاذ لعلم الجغرافيا . وقد علّمنا هذا الاستاذ انهُ اذا كان في متناولنا طائرات مداها نحو خمسة آلاف ميل ، ففي وسعنا حينئذٍ ان نستعملها في النقل الى كل منطقة من سطح الارض تقتضيها الحاجة الحربية بسرعة تتفاوت بين ٢٠٠ ميل و٣٠٠ ميل في الساعة

ان المسافة بين هنولولو وطوكيو ، أو بين موسكو وفلاديفستوك ، أو بين نيويورك وبرلين ، أو بين نيويورك وفريتون (على ساحل افريقية الغربي) أو بين فريتون والبحر الاحمر تبلغ نحو أربعة آلاف ميل

وبين الطائرات المعروفة الآن ، بعض طائرات تستطيع أن تحمل وقوداً كافياً لرحلة طويلة مداها نحو أربعة آلاف ميل تجتازها في مرحلة واحدة . ولكن هناك فرق بين مجرّد طيران طائرة من نيويورك الى فريتون مثلاً ، بغير توقف ، وبين قدرتها على نقل حمل وافٍ من البضائع أو الأسلحة أو الرجال . ونحن لا نزال — من هذه الناحية — في مستهلّ عهد النقل الجوي

فلنقابل بين الطائرة التي تستطيع أن ترفع في الجوّ حملاً يبلغ نحو ٨٠ الفاً من الأرطال (نحو أربعين طناً) مسافات بعيدة ، وبين ما تستطيعهُ السفن على هذه المسافات . وهذه المقابلة لا يمكن أن تكون دقيقة . لأننا لا نعلم الآن ، مدى التأخير الذي يصيب السفن بسبب انتظامها في القوافل ومسائل أخرى ، ولذلك ستقوم هذه المقابلة على أساسين . أولاً — مقابلة بين الطائرات والسفن التي تسير في قوافل سرعتها على المعدّل عشرة أميال في الساعة (ثماني عقد ونصف عقدة بحرية) وثانياً — مقابلة بين الطائرات نفسها وبين سفن تستطيع أن تسير بسرعة ١٨ ميلاً في الساعة (١٦ عقدة بحرية) وهي سفن لا تنتظم في قوافل

ان سفينة حمولتها ١١ الف طن ، لا تستطيع ان تنقل للاغراض الحربية شحناً يزيد كثيراً على ستة آلاف طن ، لان الخمسة الآلاف الباقية تخصص لتسليحها وتموينها ووقودها وبحارتها وما أشبه . هذه السفينة لا تستطيع ان تقطع مسافة ١٢ الف ميل بين نيويورك ومنطقة الشرق الاوسط ، في أقل من شهرين ، بسرعة عشرة أميال في الساعة . ويجب ان يضاف اليها الزمن اللازم لتفريغ الشحن وراحة البحارة واصلاح ما يجب اصلاحه فيها . وهو يتفاوت بين اسبوع

واسبوعين ثم يضاف اليهما ايام اخرى يقتضيها الانتظار للانتظام في قافلة . فسفينة من هذا القبيل تستغرق من ١٣٠ الى ١٤٠ يوماً في رحلة من نيويورك الى منطقة الشرق الاوسط ذهاباً وايباباً

اي انها تستطيع ان تنجز رحلتين ونصف رحلة من هذا القبيل في السنة ؛ اي ان تنقل من نيويورك الى منطقة الشرق الاوسط ما وزنهُ ١ الف طن

فاذا تستطيعه طائرة النقل الضخمة مقابل هذا ؟

اذا حسبنا حساباً لما تحتاج اليهِ هذه الطائرة من وقود ، لرحلة مداها اربعة آلاف ميل بسرعة ٢٠٠ ميل في الساعة ، ووزن رجالها وزادهم وما يلزم لهم من وسائل الراحة في الطوارىء ، وجدنا انها تستطيع أن ترفع حملاً من السلاح أو الذخيرة او ما شئت يبلغ عشرين طنًّا . هذه الطائرة تستطيع ان تطير بسرعة ٢٠٠ ميل في الساعة ، من نيويورك الى بارست أو فريتون ، على كتف افريقية الغربية ، في عشرين ساعة . وبعد انقضاء ساعات تستطيع ان تستأنف طيرانها مجتازة افريقية الى منطقة البحر الاحمر مثلاً في عشرين ساعة أخرى . فتقطع المسافة بين نيويورك ومنطقة الشرق الاوسط في نحو يومين . ولندخل في حسابنا يومين آخرين احدهما للراحة والثاني لما يحتمل حدوثهُ من تأخير بفعل الاحوال الجوية . ثم تعود الى الولايات المتحدة في يومين . اي ان طائرة من هذا القبيل تستطيع ان تنجز هذه الرحلة ذهاباً وايباباً في اسبوع ، او خمسين رحلة في السنة . اي ان طائرة واحدة من هذا الطراز تستطيع ان تنقل في السنة من نيويورك الى الشرق الاوسط ما وزنهُ الف طن على أسرع وجه مستطاع . أي ان خمس عشرة طائرة منها تعدل سفينة حمولتها أحد عشر الف طن وتسير بسرعة عشرة اميال في الساعة

والمقابلة على هذا الاساس ، بين هذه الطائرة ، وبين سفينة سرعتها ١٨ ميلاً في الساعة ووزن شحنها ٧٠٠٠ طن ، تفضي الى نتيجة لا تختلف كثيراً عن النتيجة السابقة . وهي ان احدى وعشرين طائرة من هذه الطائرات تنجز عمل السفينة السريعة ، في نقل ما يراد نقلهُ من نيويورك الى الشرق الاوسط . ولكنَّ الطائرات تنقلهُ في يومين ، بينما السفينة لا تستطيع أن تنقله في أقل من مائة يوم الى مائة يوم وعشرة أيام

على ان نفقة النقل بالطائرات تفوق نفقة النقل بالسفن ثلاثة أضعاف

ولكنَّ النفقة ليست كلَّ شيء . فالطائرات لا يعترضها خطر الغوَّاصات ، فتطلق طائفة من السفن الحربية لتولية حراسة القوافل للنهوض بأعمال حربية أخرى . ثم ان النقل بالطائرات يتمُّ بسرعة ، عندما تمس الحاجة الى المنقول سواء أرحالاً كان أم سلاحاً ، والنقل

السريع على هذا الوجه ينطوي على عنصر من عناصر المفاجأة . وعلاوة على هذا ان السفينة الطائرة تستطيع أن تنزل على كل سطح مستوٍ تقريباً في داخل البلاد ، من نهر أو بحيرة أو مرفأ صغير . وهذه الحقيقة تجعل استعمال السفن الجوية للنقل مفضلاً على استعمال الطائرات البرية . وخبراء الصناع والطيارين مجمعون على هذا ، وفي طليعتهم أيضاً سيكورسكي وجلن مارتن

ويخطئ من يظن ان النقل الجوي على الوجه الذي وصفناه ، لا اعتراض عليه من ناحية ما . فثمة أولاً عامل الاحوال الجوية والطيران فيها طيراناً منتظماً أو تعذر الطيران فيها طيراناً منتظماً على مدار السنة . ثم ان استعمال طائرات ضخمة على نطاق واسع يقتضي تنظيماً دقيقاً وحشد مقادير كبيرة من الوقود واعداد مخازن تحتوي على كل ما قد تدعو اليه الحاجة ، في المواقع التي تعين لنزول الطائرات . وأخيراً هناك احتمال تصدي المطاردات المعادية لهذه السفن الجوية . وتذليل الأول رهن بارتقاء الصناعة والعلم والثاني بالخبرة والدراية . والثالث بجعل مناطق نزول الطائرات بمدافع مضادة ، ومطاردات نهارية وليلية . أما في أثناء الطيران فلابدَّ للطائرة من ان تعتمد على نوع من السلاح الدفاعي ، كالمدافع التي تسلح بها القاذفات الكبيرة الآن

وعلى هذا ، يعتقد — جروفر لوينج [1] في مجلة الشؤون الخارجية — ان كل هذا مستطاع الآن على أساس الطائرات التي بنيت وجربت . ولكنه يمد بصره وخياله الى المستقبل القريب فيقول انه في الوسع تصور طائرة نقل ضخمة لها اثنا عشر محركاً قوة كلٍّ منها ثلاثة آلاف حصان ، والمدى بين طرفي جناحيها ٣٨٠ قدماً ومعدل سرعتها ٣٠٠ ميل في الساعة ويكون وزنها فارغة ٢١٥ طناً فتستطيع ان تحمل ٢٣٥ طناً منها ستون طناً للوقود ورجال الطائرة ، أي يكون وزن حملها النافع ١٧٥ طناً . وهذه الطائرة تستطيع ان تقطع مسافة ٤٠٠٠ ميل بين نيويورك ومنطقة الشرق الأوسط في مرحلتين ، أمد كلٍّ منهما اربع عشرة ساعة طيران أي نحو ٧٠ رحلة في السنة . وعلى هذا تستطيع أن تنقل بين نيويورك والشرق الأوسط ١٢ الف طن في السنة اي ان طائرتين من هذه الطراز تحملان محمل سفينة كبيرة سريعة . وجميع الأوصاف التي أسندها الكاتب الى هذه الطائرة ، لا غلو فيها ، على أساس ما يعرف الآن من فعل الطائرات المستعملة ، وارتقاء هندسة الطيران بوجه عام

(١) مهندس الطيران الاول لفيلق الطيران الاميركي ١٩١٤ — ١٩١٥ ورئيس شركة لوينج للهندسة الجوية ومؤلف طائفة من الكتب القيمة في موضوع الطيران

زجاجة رماد ...

لراجي الراعي

فررت من الشمس الساطعة وأويت الى الضباب لأني رأيت فيه خيوطاً من ذلك النسيج الصوفي الهندي الذي حيكت به نفسي وقلت له : أيها الضباب انك تدل سنارك على كل ما يهال له الناس ويكبرون ، كأنك لا تؤمن بها أو كأنك ترى فيها سفعاً وعيوباً لا يصح معها أن تعرض على الناس ، وقلت له : زدني من حيرتك ووهمك واضطرابك أيها القمم بالأسرار والأحلام ترضعها لبان الوحي والشعر ، المائل أمامي كأنك تقول لي : أنا منك أو أنت مني ، أيها الهازىء بالنور على عظمته وسلطانه كأنك الوهم الأكبر يهزأ بالحقيقة الكبرى ، يا ابن الشعراء والملهمين ويا رفيق التائهين أيها الحامل الملايين من الأشباح تطلقها على ليالي الانسانية وتملأ بها الأرواح ، أيها الضباب الجميل الذي كما رأيته قال لي : انك لم تستقرّ بعد على ما تروم ، انت على مفترق الطرق وفي نفسك من شكي ومن قلقي ، أيها الضباب ، ناهل اسماعي كأنك قلق النور وأرق الليل . أيها الذي يبدو مع الشمس لبناً تتدفق به ثديّ الرؤى وينقلب بعد الغروب طائفة وبلالاً ، أيتها الخرة البيضاء التي يسكبها الفرق في كؤوس القضاء ، أيها الضاحك على نقين الجهلاء الباكي على نفسه ، أيها الرماد المنثور الرائش بذكرى لهبه القديم ، أيها النقاب الذي تستر به الطبيعة حياء جمالها ، أيها الغين الكوثر الذي لا يسقى الا في وليمة الالهام ، أيها العقد عقد الالم الذي ما بعده ألم يفرط في دموعه الزرقاء البيض ، أيها القلب الذي يختلج حماداً في صدر الأثير . أيها الضباب زدني منك أو زد نفسك مني فنحن في غير الحيرة والخيال والوهم جفنان يرتعشان ونحن في فم القضاء والقدر شفتان متمردتان ، ويا أيها الضباب ابق لي صباحاً فقد سئمت الشمس والقمر والغسق والسحر وما هنالك من تهاويل الرسوم وأكاذيب الصور ... تلك هي الكلمات التي خاطبت بها الضباب وراء هذا الجوّ الساطع في غير هذا اليوم ولبثت أنتظر الجواب وكيف يجيبني

الضباب بالكلمة التي أريدها ، وهو لو كان يعرفها لما كان ضباباً . . انه ما يزال يتمخض بها ومن أجل ذلك هو حيث هو ، وحيث يرى من حقه أن يكون ...

لبثت ساعة انتظر الكلمة النائمة المفقودة ، ثم مرت يد قاسية فمزقت بيننا فغاب الضباب عني ! ... وفيما أنا مطرق على شاطىء البحر أفكر في تلك القوة الخفية التي لا همّ لها إلا قطع الصلات بين روحين يتهامسان وقلبين يتناجيان سمعت جلبة وضوضاء فقمت اليها فاذا آلاف من الخلق يتجادلون ويتخاصمون والبحر أمامهم والجبل وراءهم والسماء تنظر اليهم فقلت : ما لكم أيها الناس ، وما تلك التي تكأكأتم عليها وأطلقتم فيها الألسنة والعيون ؟ علامَ تختلفون وفيمَ تحتدمون ؟ فقالوا : أرأيت هذا البحر الذي تقف على شاطئه ، لقد قذف الينا أمس بزجاجة ملؤها رماد وأسرَّت الينا احدى موجاته انهُ رماد رجل عبقري عظيم ولد في الهند وقضى أيامهُ على ضفافه « الكانج » يعظ الناس ويهديهم الى الصراط المستقيم ويدبر الدنيا بحكمه وآياته فلما مات أحرق جرياً على العادة الهندية فانقلبت عبقريته لساناً من لهيب ما لبث أن استحال الى رماد جمعته الأمة في هذه الزجاجة وأودعتها البحر فما زالت الأمواج تتقاذفها حتى رمتها على هذا الشاطىء . ذلك ما أسرَّت به الينا موجة البحر ، وها هي ذي الزجاجة اجتمعنا حولها حائرين لا ندري على أي مذبح نضعها ومن هو الذي يحق له أن يتملكها ويضع يده عليها ... ولكن من أنت أيها الناظر الينا بعينك الطائرة ؟ فقلت لهم : هي عين الله الذي تركتهُ منذ ساعة ، وقد فصلتني عنهُ يد لا ترحم وما حيرتكم الآن إلا نظرة من نظرات تلك العين التي تسع الدنيا وتملأها . . اني أراكم في ضباب هذه الزجاجة التي لا تعرفون أين تضعونها . . .

أيها زجاجة العبقرية ، زجاجة رمادها وقد همدت ... فأنتم فاعلون وأين خطاؤكم يتكاءمون فترى ما يكون ؟ . . فشبت من الجمع امرأة تلهاء الجيد وقالت هذه الزجاجة لي : أنا الفلسفة ، ونهضت أخرى ساجية الطرف وصاحت : بل هي لي أنا الجمال ، وصاحت امرأة ثالثة أخذت بعنق الاثنتين : بل هي لي أنا الحكمة . ووثب الى الزجاجة فتىً وسيم عديم الحسن ، صبيح الوجه ، مطهم

الخلق تقدح عيناه شرراً وصاح ملء فمه ورئتيه وروحه : هي لي هو لي : أنا الإلهام والشعر .. ثم نهض من مكانه شيخ طوت الحياة من كتابه سبعين صفحة وراح يجرُّ نفسه جرّاً حتى توسط القوم وقال بلهجة رمادية : ان هذه الزجاجة لي : أنا الزهد .. وصاح أحد العميان : بل هي لي : أنا الألم .. وارتفع صوت من بعيد يقول : لا تعبروا هذا الرماد فهو رمادي : أنا النار .. وارتفع صوت آخر يقول : أنا البحر وهذه الزجاجة من جواهري . وصوت آخر : أنا الليل وفي هذا الرماد عبق من أحلامي .. وسمعت صوتاً من العلاء يقول : اتركوا الزجاجة اتركوها فان فيها الف شمس تضيء بي : أنا المجرة . وهرت عليها نجمتان وقالتا : هذه الزجاجة لنا فلو لم يحدق البنا صاحبها طوال حياته لما حدقتم اليها الآن .. وأطلّ علينا التاريخ يجرُّ وراءه مواكب الأجيال وتوسط الساحة وتربع صائحاً : ابعدوا ابعدوا فها أنا ذا أتيت وهذه الزجاجة لي فأنا وحدي أستطيع ان أعيد رمادها طيباً في الذكرى .. وجاء الحفارون والبناؤون والرسامون والمنشدون يتدافعون ويدعون قائلين : لو لم نكن في لسان هذا الرجل وعينه وقلبه لما أستطاع ان يكون عبقرياً .... واشتدت الجلبة وعلا الصياح ونشبت بين الارض والسماء حول تلك الزجاجة معركة كادت تتحطم في عنيرها والأيدي تتجاذبها ، كل يدّعي انها له ويريد أن يضع رماد العبقري على مذبحه .. فلم أطق صبراً وصحت بأولئك الناس . ويحكم قفوا قفوا يا عشاق الزمن الاخير . كان هذا العبقري بالأمس حيّاً فأنكرتموه وحسدتموه وقاتلتموه وأذقتموه مرّ العذاب وكدتم ترجونه من أجل عبقريته وهزأتم بحكمه وعظاته وآياته .. كان عارياً فلم تكسوه وجريحاً فلم تواسوه فلما أطبق جفنيه تنافستم في حبه ورفعتموه الى قمة المجد ... كانت زجاجته رحيقاً فلم تشربوه فلما انقلبت رماداً تلثمتم بها على قبره .. لا — ليس هذا العبقري لكم وقدمات ، لانكم لم تكونوا له وهو حي فلا تمسوا هذا الرماد فلا حق لكم فيه ... ولا يزعمنّ احد منكم ان هذا العظيم مدين له ، فالعبقرية مستقلة حرة لا تنطوي تحت اي جناح مهما يكن طائره ... انها لنفسها ولله وللخلود ...

الشرق العربي واوربا

— ٢ —

في القرن التاسع عشر [1]

لنقولا زيادة

عصفت بفرنسا في أواخر القرن الثامن عشر الثورة الفرنسية التي أقرّت حقوق الانسان ، ونشرت فكرة الحرية في أوروبا ، وهدمت الظلم والطغيان ، وخلقت نابليون وهذا ، لما عجز عن القضاء على جميع خصومه في أوروبا ، قاد في السنة ١٧٩٨ حملة الى مصر فاحتلها ، ثم سار ، بغية الاستيلاء على سوريا ، الى عكاء . لكن أسوار عكاء وحاميتها قضت على آمال نابليون في الشرق ، ولم يلبث بعد عودته الى مصر أن رحل الى فرنسا . وقد تراجع النفوذ الفرنسي السياسي مع صاحبه . لكن احتلال نابليون لمصر أيقظها من نوم عميق كانت تنامه في وسط رمال الصحراء

ومنذ سنة ١٨٠٠ بدأ الشرق العربي يتنبه لحياته ويتحسس موانع الضعف في نفسه . وهو كلما ازداد الغرب إقبالاً فيه ازداد هو تنبهاً ويقظة . وكانت أول بوادر هذه اليقظة قيام محمد علي باشا في مصر ، واصلاحه حياتها الاقتصادية ، والسياسية ، واهتمامه بنشر المعارف والعلوم عن طريق البعثات العلمية الكثيرة الى البلدان الاوروبية وخصوصاً فرنسا

وطمح محمد علي باشا في أن ينشىء مملكة قوية تضم سوريا كلها بعد أن دانت له الحجاز فوجه ابنه ابراهيم باشا الى الشام فاحتلها ، ووصل آسيا الصغرى ، وجيوش السلطان محمود الثاني تتراجع أمامه ، ولكن الدول الاوروبية لم تكن راضية عن ذلك فوجهت الى ابراهيم باشا انذاراً وجوب الانسحاب الى مصر . فتراجع بعد حكم دام عشر سنوات في سوريا

ويجدر بنا وقد وصلنا الى أواسط القرن التاسع عشر ، أن نتعرّف بكلمة موجزة الى موقف الدول الاوروبية عامة من الشرق العربي ، قبل أن نتقدم خطوة أخرى

كانت انسا تقف في وجه مطامع روسيا لا تزول دون وصولها الى الاستانه . وروسيا كانت تطمع في ذلك ، منذ زمن بطرس الأكبر كما مرّ بنا ، وكانت تتخذ حجة الارثوذكس

---

(١) سقط من عنوان الجزء الاول من هذا المقال المنشور في مجلة الفيصل ١٩٤٣ لفظ « عشر » وصحته « الشرق العربي واوربا الى مستهل القرن التاسع عشر »

من رعايا الدولة العثمانية حجة للتدخل الفعلي في الأمور الداخلية . وكانت بذلك تنافس فرنسا التي اتخذت حماية الكاثوليك حجة . وفرنسا كان يهمها أن تروج تجارتها في الشرق ولذلك كانت تتمنى للدولة العثمانية العمر الطويل . أما انكلترا ، فقد كانت طريقها الى الهند في مأمن من كل طارىء ، لذلك كانت حلافا بالدولة العثمانية وثيقة . ورغبتها في أن يبقى الخليج الفارسي والمدن والموانىء السورية تحت اشراف العثمانيين كان سبباً أساسيًّا في الحدّ من توسُّع ابراهيم باشا لما توغل في جسم الدولة

لقد كان من أثر حكم ابراهيم باشا في سوريا أن فتحت هذه أبوابها للعدنية الغربية ، فان المبشرين الفرنسيين الذين كان لهم في سوريا مثلاً تاريخ طويل يرجع الى القرن السابع عشر ، قويت أعمالهم في القرن التاسع عشر ، وذلك لأن الاميركيين جاءوا الى البلاد في أوائل ذلك القرن أيضاً . وقد زاد نشاط الفريقين بعد حكم ابراهيم باشا ، ومع ان الاميركيين قصروا همهم على بيروت فان الفرنسيين توغلوا في لبنان ودمشق وحلب . ولا شك في أن عملهم بادىء ذي بدء كان خيريًّا . ووجه الفريقان الهمة الى فتح المدارس ويكفي أن تكون الجامعة الاميركية والجامعة اليسوعية في بيروت من آثار هؤلاء القوم ، دع عنك المدارس العديدة التي كانت لها حسناتها وسيئاتها أيضاً . ولعلّ القصة التالية مما يدلنا على درجة المنافسة بين الفريقين

ذلك ان الدكتور فانديك أحد كبار مؤسسي الجامعة الاميركية ببيروت كان في طريقه الى قرية لبنانية فلقيه صديق وسأله عن غايته من تلك الزيارة فقال الدكتور (انني ذاهب لافتتح مدرستين) . فقال الرجل ضاحكاً : (ألا تكفي مدرسة واحدة يادكتور ؟) . فأجاب فانديك : (متى فتحت أنا مدرسة فان الجمعية الكاثوليكية ستفتح مدرسة أخرى في نفس القرية) وليس من شك في أن حوادث السنين في لبنان ، وما أدّت اليه من تدخل الدول الاجنبية في شؤونه حملت الى لبنان أثراً غربيًّا لم تكن الدولة العثمانية ولا سكان البلاد العربية يريدونه له

على انه يجب ان نذكر ، ونحن نتحدث عن خيرات العلم ، المنافسة السياسية . فقد رأينا فيما تقدم من هذا البحث ، ان انكلترا وفرنسا كانتا تعنيان بالطريق الشرقي الى الهند سواء أطريق الفرات كان ذلك أم طريق السويس . وانه مما يبعث على الأسف ان لا يتسع لنا المجال لدرس بعض هذه التقارير التي قدمها الكتّاب والتجار والرجال العسكريون من الفرنسيين والانكليز عن هذين الطريقين والمفاضلة بينهما . فان مجهودهم خدم العلم خدمة جلى . ومع ان همة الانكليز كانت قد انصرفت الى الطريق العراقي ، فانهم لما رأوا عناية الفرنسيين بالطريق المصري تزداد وأدركوا انها أقصر قليلاً ، شملوه هم ايضاً بعطفهم . وفي هذه الرسالة التي كتبها توماس وغورن سنة ١٨٣٧ دليل على ذلك اذ قال :

« قد يتراءى للبعض ان آرائي بخصوص الطريق المصري الى الهند بعيدة عن صحة الصواب

ولكن الواقع التي مطمئن اليها بعد تجربة ثماني سنوات متوالية . ولن يضر لي قرار حتى أرى مصر طريق الهند »

ولا يغرب عن بالنا ان اوربا في ذلك الوقت كان عليها ان تفتش عن أسواق جديدة لمصنوعاتها التي زادت بسبب الانقلاب الصناعي الذي غيَّر أساليبها في الانتاج والاتجار . ومن هنا قويت فكرة حفر قناة تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الاحمر لتسهيل النقل البحري . هذه الفكرة فاضرها الفرنسيون وعارضها الانكليز بادئ ذي بدء ، ولما بدئ العمل بها فعلاً فكر الانكليز بمد خط حديدي من الاسكندرونة الى الخليج الفارسي على ان يحاذي نهر الفرات بقدر ما يمكن . ومن ثمة كانت عناية الانكليز بتقصي أخبار التجارة وسط الصحراء السورية . وهاكم وصفاً لمكانة حلب التجارية كتبه سائح انكليزي في سنة ١٨٤٣ (اي بعد انسحاب ابرهيم باشا بقليل) ، يرينا منزلة البلاد السورية وغيرها في التجارة

« في حلب أربعة بيوت تجارية بريطانية ، وتجارة حلب في الدرجة الاولى مع بريطانيا وقيمتها نحو اربعة أضعاف قيمة التجارة الفرنسية . والاقمشة هي بين الواردات الرئيسية ، ولا سيما الاقمشة الحمر . وتصدر حلب الى بريطانيا المصنوعات والبضائع الهندية التي تأتيها عن طريق بغداد . وقد ابتلعت حلب تجارة طرابزون وازمير . والبيوت التجارية البريطانية في حلب هي سبب اثراء كثيرين من أشراف انكلترا . لكن حلب ليس لديها ما تصدره من مصنوعات محلية ، بدل ما يستهلكه السكان في سوريا الشمالية . لذلك فانهم يدفعون أثمان البضائع نقداً . وهذا سبب قلة النقود بين أيديهم . وقد عينت الحكومة التركية بانشاء بريد منظم بين الاستانة بسوريا ، ومركزه في شمال سوريا حلب . وقد ساعد هذا الاتصال التجاري والمخابرات اللازمة لذلك »

وبينما كانت انكلترا تهتم بالطريق العراقي وتفكر بمد سكة حديدية من الاسكندرونة الى الفرات ثم الى البصرة والخليج الفارسي ، كان دي لسبس الفرنسي يحاول فتح قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الاحمر . وقصة هذه القناة التي نعرفها الآن باسم قناة السويس من أروع قصص القرون الحديثة . ذلك ان الفرنسي ، الذي دعي بعد ذلك لسبس ، كان يعرف مصر معرفة صحيحة ، وكان حلم شبابه أن يرى ماء البحرين متصلاً يخترق الصحراء ويصل السفن من الواحد الى الآخر . وقد تقلب في مناصب سياسية عديدة لكن حلم الشباب ظل يراوده ، فلما اعتزل العمل في سنة ١٨٤٩ ، عاد الى التفكير بمشروعه الكبير . وكان يعرف محمد علي باشا والي مصر يعارض المشروع وان الحكومة البريطانية تقاومه في لندن وفي استانبول ، لذا كان لها من نفوذ قوي لدى الباب العالي . لكن دي لسبس كان مؤمناً بانه سينجح وغرضه منه كان تجارياً محضاً . فقد سعى للحصول على رأس مال للشركة ، في

جميع العواصم الاوربية وفي الشرق بدون ان يفرق بين فرنسي وغيره. ولما توفي عباس باشا وخلفه محمد سعيد باشا ، زالت احدى العقوبات الكبيرة . ذلك لان محمد سعيد باشا كان صديق ده لسبس منذ الصبا ، وكان مؤمناً بمقدرة صديقه موافقاً على فكرته

فلما تولى محمد سعيد باشا حكم مصر أسرع ده لسبس الى مصر لتهنئته ، فاستقبله الوالي استقبالاً فخماً ، وقد وصف ده لسبس نفسه حديثهُ مع محمد سعيد باشا عن قناة السويس ، بعد وصوله بمدة قصيرة ، قال: «ألحَّ الوالي عليَّ وقد كنا في الاسكندرية ان أرافقه في زيارته المقبلة الى القاهرة ، فانقدت للامر . وفي الطريق كنا نضرب خيمنا فوق رمال الصحراء نرقب كواكب السماء . وفي صباح الخامس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٥٤ كنت أرقب أشعة الشمس الاولى تنغلب على ما تبقى من جيوش الظلام المنهزمة ، وتوشي الفجر الجميل بخيوط من النور ، وكان قلبي يخفق بين أضالعي لانني كنت أفكر بحلم حياتي ، واذا الوالي نفسهُ يحدثني فيردني من الحلم الى الحقيقة . . . لكن حلمي بقي رفيقي النهار بطوله فلما غابت الشمس المغيب ، شعرت كأن الساعة قد حانت ، وكنت الى جانب الوالي ، وكنا وحيدين . فتحدثت . . . لقد تجنبت التفاصيل ، وأشرت الى الامم من المسائل وكنت مستعداً لكل شاردة وواردة ، ثابت الجنان ، رابط الجأش . وقد أصغى الوالي حتى فرغت ، وسأل معترضاً ، فأجبت مفسراً . وبعد دقائق قال الوالي : انني مقتنع بصحة دعواك وقابل آراءك ، سأعنى بالمسألة وتفاصيلها بنفسي ، ثق بي ... ثم استدعى الوالي ضباطه العسكريين وطلب إليَّ أن أشرح لهم المشروع بكامله » وكان هذا أكثر مما طمع به ده لسبس . ولم يلبث هذا الحديث أن أصبح حقيقة واقعة وصدرت في نفس السنة (١٨٥٤) براءة من الوالي بمنح ده لسبس امتيازاً لحفر قناة السويس وبدأ الرجل بانشاء شركة لذلك ، ثم كان عليه أن ينتقل لجمع رؤوس الاموال اللازمة

كان موقف بريطانيا من المشروع العقبة الكأداء في طريق ده لسبس . فقد قاومتهُ في الدوائر المالية وفي وزارة الخارجية في لندن وفي عاصمة الدولة العثمانية : ذلك انها سعت لدى الباب العالي ليمتنع عن الموافقة على الامتياز الذي منحهُ والي مصر ، محمد سعيد باشا ، وبذلك يصبح لاغياً . ومن يقرأ الاحاديث التي دارت بين ده لسبس واللورد بالمرستون رئيس الوزارة البريطانية ، يرى صلابة الحكومة البريطانية وتشددها من جهة ويدرك ان السبب الحقيقي يعود الى خوف بريطانيا من وضع مشروع هذه مكانتهُ بيد فرنسا . إذ ان هذا يعزز نفوذها في الشرق ، ويعرقل أعمال بريطانيا ويحد من نشاطها السياسي والاقتصادي . فقد قال اللورد بالمرستون لده لسبس ما يأتي: «ايها السيد ده لسبس، انني لن أتردد في اطلاعك عن ما أخشاه . . . . انني أخشى أن تضطرب العلاقات التجارية والبحرية

البريطانية بسبب فتح طريق جديد . لأن فتحه تسهل جميع الشعوب على السواء بما يجرمانا من كثير من الفوائد التي تتمتع بها . وأعترف بذلك ، بالاضافة الى ذلك ، اني لست مطمئناً من ناحية مستقبل فرنسا ... لأنه لا يثق باخلاص الامبراطور وصفاء سريرته » . فعهد لسبس رد رئيس الوزراء في لندن بعد ان كان قد اطمع على مساعي سفيره في الاستانة (اللورد ستراتفورد دي ردكليف) فأدرك ان الحكومة البريطانية تبذل جهدها في عرقلة المشروع من أساسه ، فتركها الى الطريق الثاني . وغاية ما أمله في هذا السبيل أن يقنع رجال المال بأن مشروع قناة السويس مشروع عملي صالح للتنفيذ ، وكان سلاحه في ذلك تقرير فني قدمه مهندسان فرنسيان كانا في خدمة الحكومة المصرية يثبت ذلك . ولكن هذا التقرير كان بحاجة الى دعمة من هيئة أوسع نطاقاً . فعينت في سنة ١٨٥٥ (لجنة دولية) من كبار المهندسين الاوربيين (بما في ذلك الانكليز) وفي السنة التالية تقدمت اللجنة الى جناب والي مصر بتقريرها الذي جاء فيه بعد خلاصته . « ان حفر قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر يجب ان يتخذ أقصر طريق من السويس الى بلوزيوم (حيث تقوم بور سعيد الآن) والقيام بهذا الأمر ميسور ونجاحه مضمون »

وكان من أثر ذلك ان أصدر الوالي نظاماً جديداً مفصلاً لمشروع قناة السويس . وأنشئت الشركة ، وكان عدد الأسهم ٤٠٠٫٠٠٠ ، ثمن كل سهم خمسمئة فرنك ، على ان يكون مركزها الاسكندرية وان تكون باريس مركزاً ادارياً وقضائياً لها

ولشر دي لسبس تقرير اللجنة في الأسواق المالية وخصوصاً في لندن . وبيع من الأسهم عدد كبير في فرنسا وجزائرها . وبدىء بالعمل في سنة ١٨٥٩

كان مما ان يتصب ، اذ كانت النفقات كبيرة جداً . ولكن نابليون الثالث تقدم فحل قوات الاولى ودعم المشروع ، وحينما ، دستوريف العمل بنشاط وحماسة كبيرين . فوصلت مياه البحر المتوسط البحيرة المسماح في ١٨ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٦٢ . وتلقى المشروع صدمة دوقتاً سنة ١٨٦٣ ما توفي محمد سعيد باشا . لكن خلفه الخديوي اسماعيل ، انصرف الى تحقيق المشروع

على ان الحكومة البريطانية لم تكن قد وافقت على الامتياز بعد . وكانت الحكومة البريطانية لا تزال تعارض تحمسه . ومن ثم قامت صعوبات جديدة ، حتى ان الامبراطور نابليون الثالث الذي قرر ان يحكم في الخلاف أصدر قراراً قبله الجميع . وسحبت الحكومة العثمانية مع اقتراحها سنة ١٨٦٦ . وبذلك فقدت بريطانيا آخر سلاح كان بيدها ضد مشروع قناة السويس . فسار العمل تحيطه عناية اسماعيل باشا ورعاه نابليون الثالث . ثم اتصال مياه البحرين في البحيرة المرة في صيف ١٨٦٩ . واحتفل بفتح قناة السويس رسمياً في تلك السنة

وليس يستطيع ان يتصور قيمة قناة السويس التجارية تماماً ، الا من أتاحت له الفرصة ان يسير في القطار بين بورسعيد والاسماعيلية مثلاً ، محاذياً هذه الطريق المائية التي تفصل الصحراء وتصل البحرين ، ويرى السفن تجري في اناء الهادىء سيراً وئيداً ، أو من سنحت له فرصة الدخول او الخروج بحراً من ميناء بورسعيد ، ليرى البواخر وحركتها في هذا الميناء العالمي . ان وقفة على آخر السد الذي يعين نهاية القناة ، تحت تمثال ديليسبس يتمتع فيها المرء طرفه بامواج البحر المتوسط تداعبها شمس المغيب او شمس الشروق ، كافية لان تقنع المرء بمكانة المشروع الذي بدأه وحققه رجل واحد ، كل رأسماله ايمان قوي وجنان ثابت

ومرعان ما اعترفت الحكومة الانكليزية بفضل ديليسبس . فقد كتب اليه وزير خارجيتها بعيد الاحتفال كتاباً يقول فيه « ان الاحتفال العظيم بافتتاح قناة السويس قد أتاح صدور الكثيرين هنا وانني واثق بأني أنوب عن جميع مواطني في تهنئتك انت والحكومة الفرنسية والامة من ورائها على هذا النجاح الذي يساوي ما بذلت من الجهد في سبيل التغلب على الصعوبات العديدة التي اعترضتك . ان حكومة جلالة الملكة « فكتوريا » تهنئك على هذا الطريق الجديد الذي شققته لربط الشرق بالغرب ، وخصوصاً لما لهُ من المنزلة التجارية والسياسية في علاقاتنا مع البلدان المختلفة »

ان افتتاح طريق السويس الجديدة أثار في نفس الحكومة البريطانية الرغبة القديمة في انشاء خط حديدي بين الاسكندرونة والبصرة . لكن الامور جرت على غير ما كان يأمل الكثيرون فان الخديو اسماعيل اشتدت حاجته الى المال ، فتقدم بعرض حصة الحكومة المصرية في اسهم قناة السويس . وتقدمت بريطانيا الى الشراء وكان ذلك في سنة ١٨٧٥ وبذلك اصبحت الحكومة البريطانية شريكة اساسية في قناة السويس ، اذ اشترطها ما يربي على ١٧١٠٠٠ سهم من اصل ٤٠٠٠٠٠ سهم (حصة نرنسا تزيد عن نصف مجموع الاسهم قليلاً)

ولما ضمنت الحكومة البريطانية هذه الحصة الكبيرة في طريق الهند الجديدة عدلت عن الاهتمام بمد سكة حديدية من الاسكندرونة الى بغداد وخليج فارس

وفي السنة ١٨٨٢ دخلت الجيوش البريطانية الاسكندرية ، ثم زحفت على القاهرة واحتلتها . وقبيل انتهاء القرن استردّت حملة مصرية بريطانية السودان بعد اخلائه على أثر قيام المهدي . وكان هذا الاحتلال البريطاني ، نتيجة لاضطراب شؤون مصر المالية من جهة ونتيجة لقيام الثورة العرابية التي اتخذت حجة من جهة أخرى . في هذه السنة بدأت العلاقات العسكرية بين بريطانيا والشرق العربي

على ان القرن التاسع عشر شهد أمراً آخر كان كبير الأثر في حياته السياسية ذلك هو اهتمام المانيا بشؤونه . وقد كان القيصر غليوم الثاني امبراطور المانيا صاحب هذه الفكرة

فقد كان رأيه الذي شاركه فيه مستشاروه الاقتصاديون ، أن يتقرّب من الدولة العثمانية ويجعل منها سوقاً لمصنوعات بلاده ومستغلاً لرؤوس الأموال الالمانية ، فاذا تم له ذلك استطاع الاستيلاء على تركيا وامتلاكها دفعةً واحدة ، بدل اقتطاع أجزاء صغيرة منها ، كما فعل غيره . لذلك لم تطلب المانيا من السلطان امتيازات سياسية قد تمس شعوره ولكنها تظاهرت بوضع جميع مصادر الثروة التي فيها تحت تصرفه وتصرف رجال حكومته . ومهد ذلك الامبراطور بزيارته الاولى لعبد الحميد في استانبول سنة ١٨٨٩ ثم أتبعها بزيارة ثانية بعد سنوات ، وفي هذه المرة زار سوريا وفلسطين ، وأهل القدس يعرفون الثغرة الخاصة في السور ، قرب باب الخليل ، التي فتحت خصيصاً ليمر منها الامبراطور . وفي هذه الزيارة وضع غليوم اكليلاً على قبر صلاح الدين في دمشق ، وألقى خطاباً قال فيه (ان الثلاثمائة مليون مسلم المنتشرين في أنحاء الشرق ، والذين يدينون لجلالة السلطان عبد الحميد بالخلافة يمكنهم أن يضمّوا الى أن امبراطور المانيا صديقهم ! . ونشطت الدعاية الالمانية في الشرق ، وأعطى الامبراطور الامان للمقيمين بفلسطين الطبيات الطائلة ليتمكنوا من شراء الأرضين وتثبيت أقدامهم في البلاد . ومن طريف ما وصل الينا من الدعاية الالمانية للتأثير في عقول سكان الاناضول ما رواه مبشر في سنة ١٩٠٥ للاستاذ ديفز : قال « سمعت ملّاً من علماء الدين يقول لجماعة من السكان في قرية من قرى الاناضول ، ان الفروق بين المذهب اللوثري البروتستانتي وبين الاسلام قليلة وغير أساسية ، وان غليوم الثاني يدين تقريباً بنفس الدين الذي يعتنقه جلالة الپادشاه في استانبول »

وليس من شك في ان الدعاية الالمانية ظهرت قوتها في فوز الحكومة الالمانية سنة ١٩٠٢ بامتياز مد سكة حديد بغداد ، لتصل استانبول بالخليج الفارسي . وعندها بدأ دور جديد في النزاع السياسي الاقتصادي بين الدول الاوروبية في الشرق العربي . فان مدّ سكة حديد بغداد على الطريقة الالمانية يختلف عن جميع المشروعات التي سبقته . فقد كانت المشروعات السابقة تقصد الى انعاش التجارة وتقصير الطرق ، ولذلك اهتمت بوصل الموانىء السورية بالخليج الفارسي . وكانت تؤيدها شركات خصوصية . أما سكة حديد بغداد فقد كانت مشروعاً حكومياً من جهة ، ومن جهة أخرى كانت لها غاية عسكرية ، لذلك تعنى بطريق استانبول بغداد عنايةً خاصةً ، كما ان الخطط التي وضعها المهندسون تجنبوا فيها تقريب الخط من شواطىء البحر المتوسط . ولو كان ذلك مضادّاً للمصلحة التجارية . وكانت سنة ١٩١٤ فنشبت الحرب الكبرى . وقصة الشرق العربي بعد الحرب الكبرى معروفة لدى القراء الكرام

سيبيريا

ومواردها المعدنية والصناعية

اذا كانت هذه الحرب في ناحية أساسية من نواحيها ، سباقاً في الانتاج الحربي بين الفريقين المتحاربين — وهي حتماً كذلك — فالاعتماد على موارد الخامات الطبيعية التي لا غنى عنها لهذا الانتاج ، في طليعة العوامل التي ترجّح كفة على كفة . واذا كان علماء طبقات الأرض لا يستطيعون أن يصدروا حكماً على القدرة الحربية والقوة المعنوية في أمة محاربة ما ، فانهم يستطيعون أن يستخرجوا من الأدلة المتجمعة عندهم حقائق عن قدرة دولة ما على انتاج خامات الحرب ومصنوعاتها الأساسية

والدولتان اللتان تفوقان سائر الدول في غناها المعدني ، هما الولايات المتحدة الاميركية ، واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية (روسيا)

ولابدّ من الاعتراف بأن تقدير السوفيات ، لثروتهم المعدنية وقدرتهم الصناعية يميل الى التفاؤل ، وليس في وسع أحد ان يحققهُ الآن . ولكن خطوط الصورة العامة واضحة . وعلى من لم يتح له تتبع البحث الجيولوجي في روسيا بين الحربين ، أن يتذكر ان مشروعات السنوات الخمس استهدفت في المقام الأول انشاء الصناعات الكبيرة في روسيا ، وما تقتضيه من استنباط ثروة روسيا المعدنية من أراضيها الشاسعة

ويقول الاستاذ جورج كرمي Cressey أستاذ علم طبقات الارض (الجيولوجيا) في جامعة سراكوز الاميركية (راجع مجلة سيانس « العلم » ١٣ مارس ١٩٤٢) انهُ اذا فرضنا جدلاً من الوجهة الحربية ان المانيا تمكنت من الاستيلاء على كل روسيا الاوربية ، واليابان على ڤلاديڤستوك ، ففي منطقة جبال الاورال وسيبيريا الوسطى ، قدر وافر من الثروة المعدنية والمنشآت الصناعية يمكّن الروس من الاحتفاظ بإنتاج حربي ذي شأن ما دامت الحرب العالمية الثانية مشتعلة . وليس من المحتمل الآن أن يتمكن الالمان من الاستيلاء على روسيا الاوربية كلها ، ومن المستبعد أن تهاجم اليابان شرقي سيبيريا ، وقد بدأ الفصل الذي الاهمال الحربية في الزوال ، بينما هي مشغولة في المنطقة الغربية الجنوبية من المحيط الهادي والصين . وقد تشمل في

بورما . ولكن اذا وقع ما يستبعد وقوعه من اتناحيين ، ففي وسع الاتحاد السوفياتي ان يضحي في القتال مستنداً الى موارده الطبيعية والصناعية . وهذه القوى لا ينطبق على الموارد التي لم يشرع في استغلالها بعد ، بل على المناجم والمصانع التي تدور فيها عجلات الانتاج الآن

ليس هناك ما تخشاه روسيا من ناحية الفحم والحديد والنحاس والرصاص والزنك والذهب . وقد تعاني بعض المشكلات في ما يتعلق بالنفط ومشتقاته والالومنيوم والمغنيس ، ولكن سيبيريا ليست مجردة من مواردها وان كان المقدار محدوداً . ولا يزال جانب كبير من روسيا الاوربية والقوقاس في أيدي الروس ومواردهم متاحة لهم وفي طليعتها النفط والمغنيس والرصاص والزنك . ولكن هذا الفصل مقتصر على موارد سيبيريا فلنلق عليها نظرة فاحصة

يقدّر علماء السوفيات موارد الفحم في الاتحاد السوفياتي بنحو ١٧٦٥٤٠٣٦١٠٠٠٠٠٠٠ طن متري . وهي تلي موارد الولايات المتحدة ، وتسعون في المائة من هذه الموارد في أرض سيبيريا . أما الانتاج السنوي قبل نشوب الحرب بين المانيا وروسيا ، فثلاثة أخماسه في منطقة الدونتز بأوكرانيا . ولكن الروس توسعوا في العهد الاخير توسعاً يذكر في استخراج الفحم من مناجم في آسيا ولا سيما من مناجم في حوض « الكوزنتز » في سيبيريا الوسطى ، حيث يبلغ المستخرج في السنة عشرين مليوناً من الأطنان . ويبلغ الفحم «البيتوميني» في منطقة الكوزنتز المتطور في أطباق الارض ٤٦٠ الف مليون طن . ويبلغ ما يستخرج من الفحم في مناجم منطقة الاورال ثمانية ملايين طن في السنة ، ومعظمه من منطقة كيزل وشليابنسك ولكنه فحم قما يصلح « للكوك » . وفي مكان آخر في سيبيريا ، الى الشمال من بحيرة بلقاش ، منطقة فحم جديدة يستخرج منها أربعة ملايين طن في السنة . وقرب بحيرة بيتال مناجم يستخرج منها ثلاثة ملايين طن في السنة . وقرب ڤلاديفستوك مناجم أخرى يستخرج منها ثلاثة ملايين طن في السنة . وهناك منطقة جديدة قرب نهر بوريا بدأ استغلالها من عهد قريب

فمجموع ما يستخرج من الفحم من مناجم سيبيريا أربعون مليون طن وهو أقل قليلاً من ثلث ما استخرج من الفحم في الاتحاد السوفياتي كله سنة ١٩٤٠ وقد بلغ حينئذٍ ١٤٦٨٠٠٠٠٠٠ طن . ولما كانت مناجم كوزنتز تبعد نحو ثلاثي ميل عن الحدود المانية ومثلها عن الحدود اليابانية فلا اعتماد عليها من الوجهة الحربية مستطاع

اما النفط فبعد مستباطه في روسيا مقتصراً على باكو وسفوح القوقاس الشمالية (ميكوب وجروزني) مع ان منطقة باكو لا تزال أغزر مناطق النفط في روسيا . في الشمال الشرقي من بحر الخزر (قزوين) منطقة « امبا » وهي غنية . وفي منطقة الاورال الى الغرب من التوخا منطقة نفط جديدة ، بلغت غزارة الآبار التي حفرت فيها مبلغاً حمل الروس على وصفها « بباكو الثانية » . اما سيبيريا بالذات فالنفط قليل فيها ولكن في النصف الشمالي من

جزيرة سخالين ، منابع لا بأس بها . وقد مدّ الروس أنابيب لنقل النفط من منطقة امبا (الشمال الشرقي من بحر الخزر) الى أمستلك في سيبيريا المتوسطة . وما دامت باكو في أيدي الروس ، فلن يعوزهم النفط ، ولو طالت طرق نقله

اما ركاز الحديد فمنتشر انتشاراً واسعاً في منطقة الاورال وهو أساس الصناعات العظيمة التي انشئت في ماغنيتوغورسك وسفردلوفسك ونشني تاجيل . فمصانع هذه المدن تخرج عشرة ملايين طن من الحديد الصب في السنة والافران المفتوحة openhearth تخرج مثل هذا المقدار من الصلب . ويقال ان مصانع ماغنيتوغورسك لا تفوقها مصانع أخرى في العالم الاّ مصانع « جاري » في الولايات المتحدة الاميركية . ونسبة الفلز في الركاز تتفاوت من ٥٥ في المائة الى ٦٦ في المائة . والواقع ان مشكلة انتاج الحديد والصلب في سيبيريا ليس مردّها الى قلة الركاز او الفحم بل إلى طول المسافة بين مناجمها . ففي مصانع الاورال لابدّ من نقل الفحم اليها من حوض الكوزنتز في سيبيريا الوسطى مسافة ١٤١٨ ميلاً . ولكن الروس حلّوا هذه المشكلة حلاً بديعاً ذلك بانهم انشأوا مصانع للحديد والصلب في المنطقتين فالقطرات التي تنقل الفحم الى الاورال لاستعماله في انتاج الحديد والصلب تعود مثقلة بالحديد لتحويله الى صُلب في منطقة الكوزنتز . فكأنهم قصّروا مسافة النقل خمسين في المائة . ويقول الاستاذ كرمي انهُ قضى خمسة ايام في حوض الكوزنتز ويشهد بأن المصانع هناك بلغت أعلى مستوى بلغتهُ المصانع الاميركية . وفي منطقة بحيرة بيكال ومدينة كومسومولسك على نهر امور في الشرق الأقصى مصانع تنتج مقداراً لا بأس بهِ من الصلب . وان نظرة عجلة الى انتاج الصلب في الاتحاد السوفياتي تشير الى ان مركز هذه الصناعة واقع في اوكرانيا الى الشمال من البحر الاسود وهي تستند الى ركاز كريفوروج وفحم الدونتز ، ولكنّ التقدم فيها في الاورال وكوزنتز مكن هاتين المنطقتين من انتاج ثلث الانتاج العام

اما فلزّ المنغنيس فكان يستخرج على الأكثر من منطقتين في المقام الأول . المورد الأكبر في اوكرانيا ، ولكن أجود أنواع الركاز في القوقاس . ولا يزال الثاني في أيدي الروس على الرجح . أما في سيبيريا فانتاج هذا الفلز محدود وركازه ليس من الطبقة الأولى ومعظمه في الاورال وفي جمهورية كازخ قرب حوض الكوزنتز . ومع ان هذين الموردين لا يكفيان الاّ انهما يسلحان في الموازنة

وقد عني الروس في مشروعات السنوات الخمس بتوسيع نطاق استخراج من النحاس . ففي منطقة الاورال موارد محدودة ، ولكن أكبر مناجمه وأغناها واقعة الى الشمال والغرب من بحيرة بلقاش . وقد انشيء مصنع لاستخراج النحاس من ركازه في مسيك في « كوزراد » يتسع لاستخراج مائة الف طن في السنة . وفي « د زكازجن » بناء مصنع أكبر منه

وتقدر موارد الرصاص والزنك في روسيا بنحو ١١ في المائة و ١٩ في المائة من الموارد العالمية. وأهم مواردهما في شمال القوقاس ومناجم «ردّر» في جبال ألتاي وروافد أخرى متفرقة في سيبيريا. وقد بلغ ما يستخرج من الرصاص ٥٥ الف طن في سنة ١٩٣٠ ومن الزنك ٦٣ الف طن في السنة نفسها.

أما الالومنيوم فكان استخراجه قليلاً في أيام روسيا القيصرية لأن مناجمه كانت قليلة والمستخرج منها كان غير جيد. ولكن الادارة السوفياتية انشأت مصانع له أخرجت ستين الف طن من الالومنيوم في سنة ١٩٣٩ فارتفعت من هذه الناحية الى المقام الرابع بين الأمم. وفي منطقة الأورال موقعان يستخرج منهما مقدار كبير من البوكسيت وهو ركاز الالومنيوم. ولكن مما يؤسف له ان المصانع الرئيسية التي تستخرج الفلز من الركاز قائمة في روسيا الاوربية المحتلة الآن

ويستخرج من أرض سيبيريا مقدار وافر من الذهب يضع الاتحاد السوفياتي، في المقام التالي لمقام اتحاد افريقية الجنوبية. وفيها كذلك مناجم للنيكل في الأورال وقرب سواحلها الشمالية. وعلاوة على ما تقدم نجد في الأورال مناجم للبلاتين والكروميوم وحجر الفتيلة وغيرها. وقرب بحيرة بيكال والى الشرق منها مناجم تستخرج منها مقادير يسيرة من القصدير والتنغستن

واذا نظرنا الى سيبيريا من ناحية ما فيها من مناطق غنية بالموارد الطبيعية وصالحة للصناعة، وجدنا منطقة جبال الأورال في المنطقة الأول. ويندر بين سلاسل الجبال في العالم سلسلة تضارعها في تعدد أنواع المعادن التي تستخرج منها ووفرة المقادير التي تستخرج من هذه المعادن. وقد استخرج الحديد من هذه المنطقة في أيام بطرس الكبير، ولكن الادارة السوفياتية انشأت فيها ٣٩ موقعاً تنتج الآن حديداً وصلباً. ويقدر ركاز الحديد المحصور في أطباق هذه المنطقة بنحو ١٫٣٩٠٫٦٠٧٫٠٠٠ طن. وقد انشئت مصانع كبيرة لصنع القاطرات ومركبات سكك الحديد والسيارات والجرارات والآلات الكبيرة والمواد الكيميائية. ويستخرج الفحم من مناجم الأورال ولكنه غير صالح لصناعة التعدين. ويستخرج النفط في مناطق واقعة على سفوح الجبال الغربية وفي جنوب منها. أما الفلزات غير الحديدية فتشمل النحاس والذهب والبلاتين والفضة والنيكل والالومنيوم والمغنيس والرصاص والزنك والكروميوم وحجر الفتيلة وغيرها. وهذه الموارد تضع منطقة الأورال في المقام الذي يلي منطقة أوكرانيا من حيث موارده المعدنية. وفيها الآن ثماني مدن، تعد كل منها أكثر من ١٠٠ الف نسمة. ومنها ماغنيتوغورسك وكان مكانها قبل سنوات قرية تقطنها قبائل رحل تقريباً وعند سفح الجبل، تمتد سهول المراعي الروسية المشهورة. لكن الجبل كتلة ضخمة من ركاز

الحديد . ولذلك دعيت المدينة التي انشئت هناك «ماغنيتوغورسك» أي « الجبل المغنطيسي » فقرر مهندسو السوفيات ، أن يصلوا بين مورد الحديد هذا وبين مناجم الفحم الغنية في كوزباس وهي على ٢٠٠ ميل من هذا الموقع . فاذا تم لهم ذلك كان هذا الاتحاد أعظم اتحاد فحمي حديدي في العالم يفوق ما يقابله في انكلترا ، أو اللورين والسار ، أو غيرهما . وأهم من ذلك ان هذه المواقع تكون بعيدة عن منال الأعداء

فبدأ البناء سنة ١٩٢٩ اذ وصل الوف من العمال بعضهم جاء متطوعاً متحمساً ، وبعضهم جاء وقد أغرته الاجور العالية ، وبعضهم جاء يحرسه الجند ، لأنهُ من المحجوزين السياسيين وغيرهم . فمدت سكة حديد وصنع سد على نهر الاورال لاستعمال الماء المنحدر في توليد الطاقة الكهربية المحركة وابتيعت الآلات الصناعية في أوربا وأميركا بأثمان فادحة . وبدأت الأفران الكبيرة ترتفع . أحدها يصنع ٦٠٠٠ طن من الصلب كل يوم . وفي هذه المنطقة مدن كثيرة اخرى . ومنها ما اختص بصناعة معينة او غيرها . فشليابنسك مختصة بصنع الجرارات ، وستانكستروي مختصة بصنع الآلات الصناعية وكانا المدينتين مختصة في الواقع بصنع الدبابات . وسفردلوفسك تصنع الآلات الصناعية والاجهزة الكهربية وفيها مصنع ذخيرة ومصنع مركبات سكك الحديد . وفي سوليكمسك رواسب غنية يستخرج منها المغنيزيوم للطائرات والقنابل المحرقة . وشوزوفايا تصنع الاصناف الخاصة من الصلب . وهكذا

وتليها منطقة ألتاي سيان في جنوبي سيبيريا المتوسطة . وهي منطقة لم تدرك قيمتها من ناحية غناها المعدني ، خارج روسيا . هناك تلك هم الاتحاد السوفياتي وكذلك تلك رصاصه وزنكه ومناجم لا بأس بها للحديد والفضة والذهب والنحاس والقصدير والمغنيس . وحقول الفحم في حوض الكوزنتز — وهو جزء من هذه المنطقة — يجعل هذه المنطقة في المقام الثاني بين المناطق الصناعية في آسيا السوفياتية . وليس ثمة ريب في أن ارتقاء صناعة الصلب في حوض الكوزنتز مفخرة من مفاخر مشروع السنوات الخمس الاول

ويجيء في المقام الثالث منطقة « كاجاخ » الى الشمال من بحيرة بلقاش حيث أنشئت المنشآت لاستغلال موارد الفحم والنحاس في السنوات التي فصلت الحربين العالميتين

والمنطقة الرابعة هي المنطقة او المناطق الواقعة شرقي بحيرة بيقال وغربيها والخامسة على نهر امور في سيبيريا الشرقية فالثروة المعدنية هنا عظيمة ولكن الاستغلال لا يزال في مراحله الاولى

في الوسع ان يقال بوجه عام مع الاستاذ كرسي ، انهُ اذا كان الانتاج المعدني عاملا اساسيًّا في كسب الحرب فاتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، يملك من الموارد والمصانع قدراً عظيماً

الشعور والزمان لا يرحمان

لأديب عباسي

أتاح لنا حُبَّ الزمان وكرهَهُ ... مزاجٌ من الأهواء غيرُ مؤكَّدِ

فلو كان أمرُ الناس خُلداً ولا أذًى ... لبات الأذى من سول كلّ مخلّد

ولو أنَّ عيشاً نيل خُلواً من القذى ... لكنّا على شوقٍ إليه[1] مجدَّد

أليس من « التبديل » كُنهُ كيانِنا ... من المهد حتى نستقرَّ بملحَد ؟!

أليس على التطويح مَعْدى رحالنا ... ولسنا على شيءٍ سواه لنغتدي ؟!

وهان علينا العبءُ شيئاً بأنه ... نتاجٌ من الأحداث غيرُ مؤبَّد

فإن حلّت النعماءُ حلّت لرحلةٍ ... وإن حلّت البأساءُ ليست بسرمد

وإن نحن يوماً ندرك الأمن مُعجزاً[2] ... فشرٌّ عتيدٌ ما نلاقيه في غد

ويوماً يكون الشرُّ سهماً مسدَّداً ... ويوماً يكون الشرُّ غيرَ مسدَّد

وعيشٌ رخيٌّ رِحلةٌ ثم ينقضي ... كما تنقضي أحقابُ عيشٍ مُسهَّد

وإنا هو الدهر المؤاتي وغيره ... كريهٌ لقاه ذو أذًى وتلدُّد

وحيناً يؤدّي حقَّنا الدهرُ صاغراً ... وحيناً نؤدّي صاغرين وعن يد

وهبْ أنَّ حال المرء بات مقيَّداً ... فإنَّ شعور المرء غير مقيَّد

بهذا قضاءُ الله حتماً ورفعةٌ ... وليس لنا عمَّا قضى من مُحيَّد

---

(١) الضمير يعود إلى « القذى » (٢) ما يعيب الناس من العجز الناتج عن فرط الاتكال على الراحة

النباتيون

المشهورون وما يرمز اليهم به

— ٥ —

محمود مصطفى الدمياطي

﴿ أبرومايت ﴾ هو الاستاذ الدكتور يوهانس ابرومايت Abromeit, Johannes ولد في ١٧ فبراير ١٨٥٧ وكان مدرساً في جامعة كونجزبرج واشتهر بخبرته في معرفة نباتات روسيا الشرقية ومصنفاته هي كتاب « نباتات روسيا الشرقية والغربية » ١٨٩٨—١٩٠٣ Flora von Ost = und Westpreussen وكتاب «النتائج النباتية التي انتهت اليها بعثة دريجالسكيس في جزيرة جرينلند » botanische Ergebnisse der Grönlanderpedition Drygalskis ١٨٩٩ وكتاب « نباتات الكثبان Dünenflora ١٩٠٠ وكتاب «أحوال نمو النباتات في ولاية روسيا الشرقية» Vegetationsverhältnisse der Provinz Ostpreussen ١٩١٢

﴿ ألن ﴾ هو شارلز إلمر ألن Allen, Charles Elmer أستاذ علم النبات في جامعة وسكنسن بأمريكا ولد في ٤ اكتوبر ١٨٧٢ في بلدة موريكون ومنذ ١٩٠١ أخرج أبحاثاً نفيسة في انقسام الخلية النباتية

﴿ أميشي ﴾ هو جيوفاني بتستا اميشي Amici, Govnuni Battista ولد في ٢٥ مارس ١٧٨٦ في بلدة موديتا ومات في ١٠ ابريل ١٨٦٣ كان استاذاً لعلم الفلك في فورنسا وهو ذو الفضل في كشف أبحاث ميكروسكوبية لعمليات الاخصاب في النباتات

﴿ أبل ﴾ هو الدكتور اوتو ابل Appel, Otto وقد أحرز لقب مستشار امبراطوري وكان عضواً في الهيئة البيولوجية للزراعة والغابات في ضاحية من ضواحي برلين. ولد في ١٩ مايو ١٨٦٧ في كونيجزبرج ومصنف كتاب « الميكروسكوب أي المجهر » Das Mikroskop ١٩١١ وله أبحاث عديدة في علم النبات التطبيقي

﴿ أرسطاليس ﴾ Aristoteles ولد في ٣٨٤ ق.م في استاجيرا من تراقية ومات

في ٣٢٢ ق . م . في خلكيس من يونية . كان فيلسوفاً عظيماً ومن علماء الطبيعيات وله مشاركة في علوم كثيرة وقد بين خطأ نظرية التولد الذاتي القائلة بنشأة الكائنات الحية من العدم أو من الكائنات غير الحية

﴿ أرتاري ﴾ هو الدكتور الكسندر ارتاري Artari, Alexander كان مدرساً لعلم النبات في موسكو وقد ولد بها في المدة بين ٢ و ١٤ يونية ١٨٥٨ ومنذ ١٨٨٥ اشتغل بعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) وعلم البيئة (الإكولوجيا) وعلم شكل (مورفولوجيا) النباتات القابلة للتخزين

﴿ أرتست ﴾ هو فرانز فريدريش انطون ارتست Artzt, Franz Friedrich Anton كان مهندس مساحة ومساحاً للمناجم في مملكة سكسونيا . ولد في بلدة اودران في ٢٠ يونية ١٨٤٤ وقام ابتداءً من ١٨٧٢ بتصنيف عدة مؤلفات نباتية ولا سيما في ما يتعلق بفطر جنكند

﴿ بوكسبوم ﴾ هو جان خرستيان بوكسبوم Buxbaum, Jean Christian ويرمز له Buxb. ولد بمرسبورج في ١٦٩٤ ومات في ١٧٣٠ وهو نباتي ألماني استدعاه بطرس الأكبر الى روسيا وقلده كرسي الاستاذية في جامعة سان بطرسبورج واشترك اشتراكاً كبيراً في تأسيس اكاديمية العلوم بهذه المدينة في ١٧٢٤ وبعدئذٍ ساح في روسيا وجزء من سيبريا وفي تركيا سنة ١٧٢٦ لدراسة نباتاتها وأهم مصنفاته شأناً هو بعنوان « ملحوظات عن ١٠٥ نباتات ما عدا المعروفة حول بيزانطية وفي الشرق » (١٨٢٨ — ١٨٤٠) Centuriae quinque plantarum minus cognitarum circa Byzantium et in Oriente observatarum

﴿ بواسيه ﴾ هو بيير ادموند بواسيه Boissier, Pierre Edmond ويرمز له Boiss. ولد في ٢٥ مايو ١٨١٠ ومات بنالرس ، من مقاطعة فود ، في ٢٥ سبتمبر ١٨٨٥ وهو نباتي سويسري من عائلة جاءت من فرنسا في زمن "لغاء فرمان نانت كان مولعاً بالرحلات فقد قام بسلسلة من الرحلات النباتية في اسبانيا واليونان واستراليا وسوريا تضمنت نتائجها المصنفات الآتية « كتاب » فهرس النباتات الجديدة المعروفة قليلا والتي حققها بواسيه في رحلته الاسبانية » (طبع في جنيف ١٨٣٨) Elenchus plantarum novarum minusque cognitarum quas in itinere hispanico legit Boissier وكتاب « رحلة نباتية في جنوب اسبانيا اثناء سنة ١٨٣٧ » (طبع في باريس بين ١٨٣٩ — ١٨٤٥ بجلدين) Voyage botanique dans le midi de l'Espagne pendant l'année 1837 وكتاب « تشخيص النباتات الشرقية » (طبع في ليبزيج بين ١٨٤٢ — ١٨٥٤)

Diagnoses plantarum orientalium وكتاب « مختصر النباتات الاسبانية الجديدة » (طبع في ١٨٥٢) Pugillus plantarum novarum hispanicarum بالاشتراك مع روتر Reuter وقد كان أميناً لمعشبة براسيبه وصديقه المخلص وكتاب « تشخيص النباتات الشرقية الجديدة مضافاً اليها بعض النباتات الأوربية والافريقية الشمالية » (طبع في ليبزيج وباريس بين ١٨٥٤ — ١٨٥٩) Diagnoses plantarum orientalium novarum, additis nonnullis europaeis et boreali africanis وعدا هذه التصانيف قد حرّر براسيبه رسالة في الفصيلة الرصاصيّة Plumbaginaceae وأخرى في فصيلة حليب البوم او الأوفوربيّة Euphorbiaceae مقدمة لنباتي دي كاندول De Candolle وأخيراً صنف كتاب « نباتات الشرق » (طبع في جنيف وبال بين ١٨٦٧ — ١٨٨٤ في خمس مجلدات) Flora Orientalis وهو مصنف ذو مكانة عظيمة يتضمن أوسع مجموعة لنباتات الشرق أي الجنوب الشرقي من أوربا والشمال الشرقي من أفريقية وجزء كبير من آسيا . وفي ٢٠ ابريل ١٨٨٥ انتخب براسيبه عضواً مراسلاً في أكاديمية العلوم

﴿ پورش ﴾ هو فريدريك پورش Pursh, Frederick ويرمز له Psh., Ph. ولد في توبولسك من سيبيريا ١٧٧٤ ومات في مونتريال من كندا في ١١ يونية ١٨٢٠ وهو نباتي روسي صنف كتاب « نباتات امريكا الشمالية » (١٨١٤) Flora Americae Septentrionalis

﴿ پوپنج ﴾ هو ادوارد فريدريش پوپنج Poepping, Eduard Friedrich ويرمز له Poepp. ولد في بلاون من بلاد بكسونيا في ١٦ يولية ١٧٩٨ ومات في ليبزيج في ٤ سبتمبر ١٨٦٨ وهو بروسي من علماء الطبيعيات ومكتشف تجوّل في أمريكا الشمالية وجزيرة كوبا من ١٨٢٢ — ١٨٢٥ وفي شيلي من ١٨٢٦ — ١٨٢٩ وفي بيرو من ١٨٣٠ — ١٨٣٢ ثم نزل على نهر الأمازون في طريقه الى اوربا وكانت مجاميعه من نباتات امريكا الجنوبية مهمة جداً ومن ١٨٣٣ كان استاذاً لعلم الحيوان في جامعة ليبزيج ومصنفاته هي كتاب « رحلة في شيلي وبيرو بالنزول على نهر الأمازون » مجلدان وأطلس (١٨٣٥) Reise in Chile, Peru und auf dem Amazonenstrom وكتاب « اجناس وأنواع النباتات الجديدة » (ثلاثة مجلدات من ١٨٣٠ — ١٨٤٥) Nova genera ac species plantarum وكتاب « صور التاريخ الطبيعي لعالم الحيوان » : اربعة مجلدات في ١٨٥١) Illustrierte Naturgeschichte des Thierreichs

فصل

الصلاة الصحية

للدكتور شوكت موفق الشطي

إن الصلاة دعامة الاسلام الثانية وقد فرض على كل مسلم اداؤها في مواقيتها مقيمة الاركان مستكملة الشرائط وفي اداتها من المنافع الصحية عدا المنافع المعنوية ما نسعى الى شرحه في هذا البحث وما دعانا الى حشره في زمرة رياضات العمر لانها رياضة معتدلة لا تعب فيها ولا ارهاق

لا تجوز الصلاة الا بعد التطهر بغسل من وجب عليه ذلك ووضوء قبل كل صلاة . وفي ذلك حث الناس على الطهارة والنظافة وقد قرن الله سبحانه وتعالى المتطهرين بحبه اذ قال عز وجل « ان الله يحب التوابين والمتطهرين » . وذلك اعلاء لشأن الطهارة وتعظيماً لها وقد جاء في الحديث الشريف (ان الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة)

١ — التطهر بالغسل والوضوء وفوائدهما الصحية

١ — ﴿ التطهر بالغسل ﴾ : الطهور مفتاح الصلاة ولا يجوز الا بماء طهور والغسل موجبات منها الحيض والنفاس والولادة والجنابة وله فرائض منها تعميم الجسد كله بالماء بحيث يجب ايصال الماء الى كل ما يمكن الايصال اليه بلا حرج ويجب على المغتسل ان يعم بالماء ما ظهر من جسده كعمق سرته وموسع جرح برىء غائراً ويجب ان يزيل كل حائل يمنع وصول الماء الى ما تحته كعجين وشمع وقذى في العينين ومنها المضمضة والاستنشاق وله سنن ومستحبات فمن سننه غسل اليدين الى الكوعين ثلاثاً وغسل الفرج (ويقصد به العضو التناسلي في الذكر وفي الانثى) وازالة النجاسة من البدن والوضوء قبل الغسل وتثليث غسل الاعضاء وما الى ذلك

والغسل انواع : مفروض كما بيّنا ومسنون كغسل الجمعة ولو لم يلزم والغسل للعيدين ومندوب من لبس ثوباً جديداً ومن قدم من سفر والمستحاضة انقطع طمثها

٢ — ﴿ التطهر بالوضوء ﴾ الوضوء طهارة مائية تتعلق باعضاء مخصوصة بعضها يغسل وبعضها يمسح وهي الوجه واليدان والرجلان وكلها تغسل الا الرأس فانها تمسح لستره غالباً

فيشق غسلها والأصل في فرضية الصلاة قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين » والوضوء شروط منها عدم الحائل المانع من وصول الماء الى البشرة ، ومنها ان يكون الماء طهوراً وله فرائض منها غسل جميع الوجه بالماء من مبدإ شعر الرأس المعتاد الى آخر الذقن طولاً وما بين وتدي الأذنين عرضاً ، وغسل اليدين مع المرفقين وغسل ما تحت الأظافر الطويلة اذا طال الظفر فمطى رأس الأصبع فمنع وصول الماء الى ما تحته وجب غسل ما تحته بعد إزالة المانع ومسح الرأس وغسل الرجلين مع الكعبين مرة ولها سنن منها تثليث الغسل بالماء الطهور ثلاثاً والمضمضة والاستنشاق والاستنثار بطرح الماء من الأنف بالنفس بعد الاستنشاق وذلك لطرد ما فيه من قذارة ومسح الأذنين ظاهراً وباطناً ومسح صماخ الأذنين وتجديد الماء لمسح الأذنين والاستياك في ابتداء وضوء وتخليل أصابع اليدين والرجلين وتحريك الخاتم حتى يصل الماء الى ما تحته . وله مندوبات وفضائل منها الجلوس في مكان مرتفع لئلا يصيبه رشاش الماء المستعمل وطهارة موضع الوضوء وعدم الاستعانة بغيره في تطهير أعضائه واغتراف الماء للمضمضة والاستنشاق باليد اليمنى والاستنثار باليد اليسرى

يؤدي القيام بالغسل والوضوء من الوجهة الصحية الى فوائد عديدة أهمها صحة الجلد ونظافته

أ — الجلد وأهميته [1] وصلة الغسل والوضوء في نظافته : لا يخفى ان الجلد درع البدن المتين يدرأ عنه شر كثير من العوامل الخارجية والطوارىء خلا ما فيه من الوظائف الهامة كتنظيم الحرارة البدنية وصيانة أعضاء الافراغ بمرونته الشعرية وكثرة مسامه المنتشرة في كل نقطة منه وهو مقر الحس واللمس ومعرض لارتكاسات كثيرة في البدن ومظهر من مظاهر الانفعالات العصبية الروحية في الانسان ومسرح من مسارح الجمال أيضاً . ولا يخفى ان الجلد لا يمكنه ان يقوم بوظائفه المذكورة بحق ما لم يكن نقياً مفتح المسام حرّها . فالنظافة اذن أسس الصحة الجلدية كما أنها أساس الوقاية مطلقاً إذ بها ينقي الجلد كثير من الجراثيم وبها يقوى البدن اجمالاً وينشط لأعماله ووظائفه والنظافة أمر حسن ، أي هي حسنة في كل مكان وزمان كما هي شرط هام في سلامة الجلد وصيانة البدن والجلد أثر كبير في وقاية البدن وصيانته كما ان له وظائف شتى جليلة الشأن في سلامة سائر الأعضاء الرئيسية في الجسم وحس سيرها ونشاطها فهو بالنظر لقاومة بشرته وطلائه بالمواد الدهنية يحفظ البدن ويقيه من الطوارىء المختلفة من آلية او حيوية جرثومية وبما يتفصح منه من العرق في الحرارة المرتفعة ، ومن

(١) نكتفي بهذا ما جمع في هذا البحث من كتاب في الصحة نؤلفه الاستاذ عبد الملك خيط

تبخر ذلك يجعل حرارة البدن في حدّ ثابت ومنتظم ويدفع عن البدن شرّ زيادتها وهو بهذا العرق يدفع كثيراً من المواد السامة فيعين الكلية في وظيفتها ، وبواسطة مسامه العديدة ، منافذ العرق والدهن يساعد التنفس الرئوي . وإمروقه الشعرية الكثيرة يسهل انتظام دوران الدم ومبادلة الأغذية ، ولما فيه من المآخذ الحسية يجعل البدن على اتصال بما يحيط به من الاشياء باللمس وحس الحرارة او الالم ، وكثيراً ما يكون مرآة الباطن بما يظهره في بعض الإمراض من المدفعات الجلدية المختلفة او يكون نقطة انتخاب في تعليق بعض الأدوية او واسطة لجني بعض الفوائد العظيمة ، في كثير من الاحيان ، بواسطة المداواة المائية وما اشبه ذلك . تعرف من هذه المقدمة الموجزة أهمية الجلد ومبلغ ما ينبغي له من العناية والمداراة بالنظافة والاّ كان عرضة لتلبّسه بطبقة لا يستهان بها من الاقذار تتكوّن من تراكم غبار الهواء وهباء الالبسة من الخارج ومما ينضم اليها من سطحه من الخلايا القرنية المتوسفة وبقايا العرق والمواد الدهنية بعد تبخر مائها وزواله . وهذه الطبقة قد تسد تلك المسام الجلدية فتعوق وظائف الجلد وتضر بالبدن كله ضرراً اكيداً خلا ما يحدث بسبب تلك الاقذار نفسها من تخديش الجلد وحصول الحكة فالالتهاب ، وانتشار الروائح الكريهة لاختمارها بتأثير بعض جراثيم الجلد الكثيرة ، تلك الرائحة التي لا يتهيأ تأنق او تزين بل تفضح القذر وتدل عليه لاول وهلة ولاسيما في الاوقات الحارة والمجامع الكثيرة القذرة ، وليس هناك ما يحفظ للجلد رونقه وصحته ولا ما يدرأ عنهُ شر تلك الويلات ويعيد اليه نشاطه لاداء وظائفه بحق الاّ النظافة . والقاعدة العامة في سلامة البدن من هذه الاضرار هي النظافة بالغسل او الاغتسال يوميًّا ان امكن ذلك بافاضة الماء على البدن كله وان لم يمكن هذا فغسل ما ظهر منهُ دائماً وكان عرضة للتمطن بالمفرزات كالارجل . وما اعظم فائدة ذلك لو كرّر مراراً في اليوم لما يعرف من ان هذا الغسل لا تقتصر فائدتهُ على نظافة الجلد ونشاطه فحسب ، بل يكون داعياً الى نشاط الجسد كله لدعوته الدم الى هذه الاقسام المغسولة وبذلك ينبه الدوران ويخفف احتقان الجهة العصبية المركزية — فيفيها وفي ذلك ما فيه من الفائدة والنشاط ولا سيما في المشتغلين بأفكارهم خاصة ويزيد كذلك في نشاط الجسم كله وانشراحه للعمل الفكري والبدني بما يفعله في عون الرئة والقلب في اتيان وظائفهما وفي نشاط الاغتذاء ايضاً

لقد بينا ان الصلاة عند المسلمين تحتم عليهم الوضوء للصلوات الخمس يوميًّا على النحو الذي ذكرناه كما انهُ يحتم عليهم الغسل العام في كثير من الاحوال أقلها مرة في الاسبوع وقد صح عن النبي (ان لله حقًّا على كل مسلم ان يغتسل في كل سبعة أيام) وقد صح عن ابي سعيد الخدري قول النبي محمد صلى الله عليه وسلم (غسل الجمعة واجب على كل محتلم) وجاء في الحديث

الشريف ايضاً (من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ومن اغتسل فالغسل أفضل)

ولا تقتصر عناية الاسلام بالنظافة بهذا الحد فحسب ، بل يتطلبها في جميع نواحي البدن والثياب والمكان اذ لا تجوز الصلاة الا بوجود الطهارة في ذلك كله ، وفي كل صلاة ولا تجوز هذه الطهارة الا بماء نقي مطهور . ولقد رأينا من بحث الغسل انه إفاضة الماء على البدن كله فالغسل والوضوء أقصى ما تطلبه القواعد الصحية في نظافة الجلد فبالوضوء تجعيل مواطن نظر الخلق بازالة ما أصاب أعضاء الوضوء من ملامسة الأشياء وما يحمله الهواء من التراب وتخرجه المسام من العرق وتقذفه المنافذ من الأقذار وبه تغسل الايدي مراراً في اليوم والأيدي معرضة للتلوث أكثر من غيرها لأنها واسطة الأخذ والتناول والقبض وأداة العمل اجمالاً . وتقضي سنن الوضوء بملاحظة تفاريج اليد وانواتها والأظافر وتحتها وهو ما يتراكم تحتها من الأوساخ

بالوضوء تغسل الارجل مراراً في اليوم وغسلها واجب صحيًّا لأنها تكون منحصرة في أحذية مشكلة وعرضة للتعفن دائماً خاصة في الفصول الحارة ، وتزال عنها تلك المواد المفرزة من جلد الرجل ولا سيما الاصابع ، باطنها وظاهرها والتي تتراكم تحت الاظافر او في تفاريج الأصابع غالباً ولا يخفى ان هذه المواد ان اهملت في مكانها كانت بؤرة ضرر وكراهة لما ينجم عن تحريشها ذلك الجلد دونها ، فتنين من العرق والافرازات وما يحدث هنالك من الاختمارات العفنوية التي تكون أو تصير كريهة بدرجة لا تطاق . وتتحقق بالوضوء نظافة الوجه والسمام . ولا يخفى أن الوجه أول ما يبدو فتناظر من الجسد ويقال أنه ما سمي وجهاً الا لذلك ولذا تجب العناية به كل الاعتناء . وليس هنالك ما يحفظ جماله وصحته كالنظافة اذ بها يتنبه فيه دوران العروق الشعرية وتنفتح مسام جلده فينشط لتأدية وظيفته فيقوى ويترقرق فيه ماء النضرة ويسطع منه نور البهاء والرونق وأن أهمل علته العمامة والكمامة وتتلكأ في عمله ووظائفه فترتسم فيه الغضون[1] والمناديط[2] تلك الآثار[3] التي تخطها يد السنين في صفحته عاجلاً كما تمحيها حوادث الدهر وتؤزنه عادة ، ويدل تأثيرها فيه على مبلغها منه

وما كان في الوجه مجمع أعظم لحواس كانت العناية أدعى وألزم ولا سيما تلك المسام المؤدية اليها أو الحافظة لها ، ولنظافتها لا تقل وجوباً عن نظافة جميع الاعضاء الظاهرة ، وان لم تكن أكثر أيضاً لأنها عرضة للتلوث بالجراثيم دائماً لذا يقتضي لها عناية خاصة وهذا ما فرض أو استن في الوضوء

---

(١) الغضون : جمع غضن وهو التجعد في الجلد او غيره (٢) المناديط جمع منقوط وهي تلك الكسور التي بين الجلد والعظم وعند العامة (٣) الآثار : جمع اسرار وهي جمع سر او سرر الجلد في الوجه والكف

ب — ﴿ نظافة الفم والاسنان وأثر الغسل والوضوء في ذلك ﴾ : تتم نظافة الفم بغسله والمضمضة وأهم مافي هذه النظافة ان يغسل الفم مراراً في اليوم وأن يمضمض في أوقات مختلفة من النهار وهذا ما يتيسر للمصلي خمس مرات في اليوم كما وانهُ استنَّ الاستياك مراراً في اليوم وذلك تأميناً لمبالغة في نظافة هذا العضو الذي هو معد للغذاء ومبدأ انبوب الهضم . لا تنحصر وظيفته في تهيئة اللقمة الطعامية فقط بل هو فوق ذلك مقر الذوق وموقع التكلم وقد يفيد في التنفس ايضاً . والفم عرضة لدخول كثير من الجراثيم لان أكثرما يتناوله المرء من طعام وشراب وهواء مفعم بهذه الجراثيم او غني بها من الاقل . وفي الوضوء وسنته كما بينا تتم نظافة الفم نظافة صارمة وبالاستياك تحفظ الاسنان . وتحفظ الاسنان من أسمى الغايات الصحية لضرورتها فالصحة السليمة لاتنال بدون مزيد الاعتناء بالاسنان ولا يكون جسم الانسان صحيحاً معافىً ما لم تكن أسنانه صحيحة إذ لايخفى ان الاسنان أعضاء الهضم الهامة وذلك أول عمل أساسي من أعمال الهضم فاذا اختلَّ اختلَّ ما بعده حتماً والاسنان بلونها وانتظام رتلها من أهم أسباب الجمال في الفم وهي كذلك بمتانتها وسلامتها تحفظ للفكين وضعهما الطبيعي فيتم بها جمال الوجه كله وهي بتمامها وصحتها تجمّل المناطق وتحسّن اللفظ فعلى سلامة هذه الدرر يتوقف حسن الهضم وبصحتها يتم جمال الوجه والفم ويستقيم اللفظ ويعذب النطق

والنظافة خير واسطة لحفظ الاسنان اجمالاً حتى انها لتقوي الضعيف منها ، كما ان عفونة الفم تضعف الصحيح ، وأعظم وسيلة لنظافة الاسنان الاستياك وهو إحدى سنن الوضوء كما أسلفنا وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب السواك ويستاك مفطراً او صائماً وعند الانتباه من النوم وعند الوضوء وعند الصلاة وعند دخول المنزل ويحض عليه بأبلغ ألفاظ العموم والشمول وفي الصحيحين (لولا ان أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عندكل صلاة) وفي البخاري (السواك مطهرة للفم مرضاة للرب) والاحاديث فيه كثيرة وفيه عدة منافع

وللاستياك عند الانتباه من النوم فائدة كبيرة لان تكاثف اللعاب في الفم أثناء النوم ولاسيما اذا كان الشخص عرضة لبقاء فمه مفتوحاً مدة طويلة او قصيرة أثناء ذلك يخدم الجراثيم ويسهل كثرتها في الفم فمن الضروري رفعها عند القيام من النوم اذاً ، وهذه هي السنة إذ من المتفق عليه ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان اذا قام من الليل يشوص [1] فاه بالسواك

دمشق يتبع)

(١) يشوص يعني بذلك

الهيكسوس

مدى توغلهم في مصر

للدكتور باهور لبيب

تحدثنا في مقالين سابقين (تفضل التلطف بطبعهما في جزء فبراير ١٩٤٢ وفي جزء يونيو من العام نفسه) عن أصل الهيكسوس وموطنهم الاول ثم عن صفة الهيكسوس ومدة حكمهم. والآن ننتقل الى الكلام عما وقع تحت حكم الهيكسوس من المناطق المصرية ثم مطاردتهم منها

يحدثنا المؤرخ مانيتون أن « الهيكسوس استولوا على مصر بسهولة وبغير حرب لأن أهل مصر كانوا في ثورة وهيجان » وكلام مانيتون صحيح تؤيده مقارنة الآثار، إذ أننا نرى انه ابتداء من منتصف الأسرة الثالثة عشرة (أي حوالي سنة ١٧٥٧ ق . م [1]) عمت الفوضى البلاد وبدأ الضعف يدب في صميم الدولة

بردية Sallier I (وهي محفوظة في المتحف البريطاني وتاريخها يرجع الى عصر الملك منتاح ومحتوياتها ترجع رغم ذلك الى عصر الهيكسوس) تورد الجملة الآتية : —

« حدث أنه كان في أرض مصر خطر أو وباء ولم يكن هناك سيد ما ملكاً بينهم ». فيتضح لنا من هذا النص التاريخي القديم ان مصر كانت في حالة فوضى وأن المصريين عجزوا عن إقامة ملك منهم مما سهّل فيما بعد على الهيكسوس الاستيلاء على مصر حوالي سنة ١٧٣٠ ق.م.

وقد جاءت أحوال مصر السيئة مؤاتية للغزاة في وقت كان الضغط عليهم في بلادهم يزداد شدة ويدعو الى هجرتهم نتيجة لاغارات حدثت في القرن الثامن عشر قبل الميلاد وكان مردها الى حركة اندفاع الشعوب الهندية الاوربية (الآرية) في آسيا وهجرتها ولاسيما وقد دخلوا مصر بخيلهم وعرباتهم وغير ذلك من الفنون الحربية التي يجهلها المصريون فتفوّق

(١) راجع مقال المندوب في مجلة القانون والاقتصاد : العدد الأول من السنة الثانية عشرة صفحة ١٣٦

الهيكسوس من الوجهة الحربية سهّل لهم الاستيلاء على المدن والقرى فاستولوا بغزاة على ممفيس برغم موقعها الحربي المنيع . ونعلم ذلك من نص مكتوب بالهيراطيقي على لوحة معروفة بلوحة كارنارفون

وعلى لوحة كارنارفون هذه نصٌّ آخر يؤيد بردية سالييه السابقة الذكر وفيه أن « ملكاً من الجنوب من مليبة يدعى كامس جمع قواده وخاطبهم قائلاً : — « أريد أن أعرف ما هي قوتي اذا كان هناك أميرٌ في بلدة حات وعرت (عاصمة الهيكسوس) وأميرٌ آخر في بلدة كوش وأنا جالس مع أسيوي ونوبي كل واحد منهما يملك نصيبه في أرض مصر ويشاركني الارض أنا لم أعطه الفرصة أن يصل حتى ممفيس ولكن أنظر الآن فقد تمّ استيلاؤه على الاشمونين »[1]

فمن هذه النصوص نخرج بأن الهيكسوس توغلوا في الدلتا ثم استولوا على ممفيس ثم وصلوا في الديار المصرية الى بلدة الاشمونين

وفي ردّ القواد السابق الذكر على الملك كامس ، وهو ردٌّ نجده أيضاً على لوحة كارنارفون نجد أن هؤلاء القواد ردُّوا على الملك قائلين : « ولو أن الهيكسوس وصلوا الى بلدة القوصية (الواقعة بالقرب من دير وط) وأخرجوا ألسنتهم دفعةً واحدة سنكون في هدوء لأننا نملك مصر نا ولأن الفتين قوية والجزء الأوسط من مصر في حيازتنا حتى القوصية وعلاوة على ذلك تحرث لنا أحسن أراضيهم ومواشينا ما زالت في الدلتا فالعلان ترسل الى خنازيرنا وكذلك لم يستولوا على مواشينا »

فمن هذا النص نرى انه يمكننا تعيين الجهة التي وصل اليها الهيكسوس في مصر وهي جهة القوصية بل يرينا هذا النص كذلك أن الهيكسوس في الدلتا لم ينزعوا ملكية الاراضي التي كان يملكها فيها أهل الصعيد . ومع ذلك فهناك طائفة من العلماء أمثال بتري وأدوارد ماير وبونكر تظن أن الهيكسوس توغلوا في الاراضي المصرية الى أبعد من ذلك ويستندون في رأيهم هذا الى قطعتين من الحجر وجدتا في جبلين (بالاقصر) عليهما أسماء الملك خيان وذلك أبوفيس

ولكننا لا نعد هذين الحجرين دليلاً كافياً على صحة ما تذهب اليه هذه الطائفة من العلماء وذلك لأننا نلاحظ أن الملوك الذين أتوا في العصور المتأخرة عن عصر الهيكسوس أخذوا آثار الهيكسوس ونقلوها من مكان الى آخر

(1) Pallor Lublin, Die Herrschaft der Hyksos, p. 17 ff.

فعلى سبيل المثل تقول : أن جاردنر وجد أثناء من الجرانيت للملك ما أوسر رع أو فيص في مقبرة الملك المنتصب الأول في طيبة

اذن فلنمض في تأييد وجهة نظرنا ولنورد نصاً آخر يؤيد نص لوحة كارنارفون وهو نص الملكة حتشبسوت في معبد Speos Artemidions بالقرب من القوصية فقد جاء فيه ان الملكة اصلحت معبد حاتحور وجددته وقد كان في جهة القوصية وكذلك المعابد الاخرى التي هدمها الهيكسوس حتى بلدة القوصية . وهو يحدثنا على الظن أن معبد بلدة القوصية هو آخر معبد وصل اليه تخريب الهيكسوس . والنص بالطرف يقول : لقد أصلحت التلف وأكملت الناقص بعد ما كانت البلاد تئن تحت حكم الهيكسوس الذين كانوا في عاصمتهم بلدة هوراس (حات وعرت) في الدلتا» . فهذان النصان يؤيدان أن الهيكسوس وصلوا فقط إلى بلدة القوصية

ثم أننا نجد تعززاً لهذا الرأي في ادارة الحكومة في الاسرة الثامنة عشرة أي بعد طرد الهيكسوس مباشرة . فالمنطقة من بلدة الفنتين الى ما بعد أسيوط بقليل أي الى ما يقرب من القوصية كانت من اختصاص أحد الوزراء ثم من القوصية الى اعلى الدلتا كانت من اختصاص وزير آخر

فالرأي ان المنطقة من الشمال الى القوصية هي المنطقة التي استولى عليها الهيكسوس لا سيما واننا نعلم أنه كان بين المنطقتين حدود محصنة ترجع الى ما قبل عصر الهيكسوس فوقف عندها تقدمهم في أغلب الظن . ونجد هذا التقسيم يستمر الى ما بعد عصر الهيكسوس فقد استمر الى عصر الملك بعنخي مما يدلنا على ان هذا التقسيم كان مهماً وأن هذه الحصون يصعب اقتحامها

ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن اسم اسيوط بالمصرية القديمة معناه « الحاوس » وهذا مما يؤيد وجهة نظرنا ويرينا كيف تمتزج السياسة بالدين

وهناك سبب آخر يؤيد القول بأن الهيكسوس لم يستولوا على مصر بأجمعها وذلك أننا نعلم تمام العلم أن هناك ملوكاً وطنيين جعلوا مقرهم في طيبة وطردوا الهيكسوس من مصر كما سنرى فيما بعد

ومن الطبيعي أن ملوك طيبة كانوا حول عهد الهيكسوس وليس في آخر حكمهم فقد فكان هناك في الواقع فريقان فريق الشمال وهم الهيكسوس الذين حكموا حتى بلدة القوصية وفريق آخر مصري حكم من الفنتين الى القوصية وبذلك تكون غزوة الهيكسوس قد اقتصرت على الدلتا حتى بلدة القوصية فقط

القاهرة — جمعة فؤاد الاول

بيوم عمر بن !

للشاعر الدمالي سترارس

كنتُ في العهد الغابر —

أود ان أدرك منطق الطيور
وأفهم شكاوى العنادل
وأعرف نجوى الليل والنهار حين يتلاقيان ويفتاجيان
وأرى الى أي أوجٍ تسمو زفرات المحبين !
كنتُ حينذاك فتىً تغمرني السعادة

واليوم —

قد انطوت جميع أماني الماضي
وأصبحت أتوق الى معرفة ذلك الطبب الذي تداوى به آلام الحياة
وأمسيت في هذا الليل المسرخي عليَّ سدولهُ بأنواع الهموم —
أبتغي ان أعرف
أهناك أملٌ يصبح غير بعيد ؛
يقتنص عن نهار جديد ؟

حديقة المقتطف

رابندرانات تاجور

الفصل الرابع

« المرأة والعالم »

محمود النجوري

تاجور في الحياة والاخلاق

والمدنية والسياسة والمرأة والادب والدين

— ٣ —

لمحمود النجوري

ظلّ تاجور طويلاً يتحدث عن العالم في وحدته الروحية ، ولكنهُ لم ينسَ العالم الصغير ، الأسرة والبيتَ ، فكتب روايته « البيت والعالم » The Home and The World [1] وحدّثنا حديثاً اجتماعيّاً كلهُ عذوبة وحياة وشعر ولسنا بسبيل تلخيص هذه الرواية بقدر ما نحن بسبيل استخلاص آرائهِ الاجتماعية في المرأة والرجل وفي الزوجة والبيت وفي الانسان والوطنية وفي الاستعمار والحرية

عند ما عالج تاجور العالم عالجه على أنه أسرة واحدة ، ولكنه عند ما عالج شؤون الأسرة عالجها على انها العالم كله : « فالبيت والعالم » هو العنوان الذي اختاره تاجور لروايته التي بسط فيها آراءه في تطور المرأة في الحياة والاجتماع والأسرة ... يناجي بالفتاة « بيمالا » فتتحدّث اليك :

« كان زواجي في نظر الرأي العام « تبكل » ، وكنت أقرأ في جميع وجوه الناس ، بكثيرون عن الاسف ، ولكن وجه زوجي لم يكن ينطبق على هذه الاوصاف فقد كان مثلي يحتقر الجميع ، وزاد من قوة شعوري أني لست فقيرة جداً ، ولقد طبع هذا الشعور على وجهي جرأة عجيبة ... ولكني مع هذا كنت أحب المرأة كان احب عندها ديناً وكان حبيب موضع التقديس والعبادة »

فبيمالا فتاة هندية من عامة الشعب لا يرتفع نسبها الى مجد الراجاه الذي تزوجت منه فهو من أسرة من أعرق أسر الهند حسباً ، ومن أشدها تمسكاً بالتقاليد ، هي تشعر دائماً بهذا الفارق . ولكن زوجها كان رجلاً مثقفاً ثقافة غربية ، فهو من رجال العصر الجديد تلقى علومه في الكليات والجامعات وثارت في نفسه الشكوك في تقاليد الأسرة . فلم يشأ أن يجعل من الزوجة أسيرة قعيدة البيت لا تشاركه الحياة ، ولكن زوجته مجبولة على تقديس الزوج كما نشأتها التقاليد الشرقية

---

(١) نقلها الى العربية الاستاذ فيليبس عبده قلا ملخصاً

« الزوجي لم يكن يدع في بالا لكي أعبده ، وهذا تتجنى عظمته فان هناك فريقاً من الرجال يريدون أن يكون خضوع الزوجة للطاني حقاً من حقوقهم ، وهذا عار كبير عليهم وعلى الزوجة التي يريدون تقييدها بهذا الحق ، ان حب زوجي إياي كان ملؤه الاخلاص ، ولكني علمت لاعطي أكثر مما أخذ لان الحب يشبه تلك الازاهير التي تنمو في السهول أكثر من نموها في أواني البلور »

هي زوجة شرقية تريد أن تعبد زوجها ولكن زوجها رجل مجدد يأبى عليها ان تعبده ، لا يريد منها الا أن تعرف أن الرجل والمرأة يتساويان في الحب ، وهي تعترف في حوار معه « بأن أفكار النساء صغيرة معوجة » ولكنه يجيب : « ليس هذا ذنبهن ألا ترين ان أقدام الصينيات صغيرة فذلك الذي جلبه على هذ غير الضغط عليها منذ الحداثة »

لقد كانت زوجة بريئة لم تتطرق اليها الأفكار الجديدة التي كانت تجتاح الشرق منذ حين فهي تقول :

« كان أميري صاحب مملكة ، فبي تتجها وأنا ملكتها الجالسة على عرشها ، ولكني كنت أفرح حين أشعر ان موضعي يجب أن يكون عند قدميه »

انها تفكر في تقاليد الشرق الكريمة فتقول :

« يا زوجي الحبيب لقد كنت عظيما حين كنت تنهاني عن أن أعبدك ولكنك لو رضيت بي عابداً لأحسنت إليّ أجل إحسان ... ان سعادة المرأة الحقيقية هي أن تحب فان قضيتم على كبريائها في هذا الحب قضيتم عليها »

ولكن الزوج المجدد لم يكن يرضيه ان يجد في زوجته هذا الخلق الشرقي الذي يرجع التقاليد في جميع ما يصدر عنها كزوجة لا ترى العالم الا في زوجها ، ولا تلتمس منفذاً الى الحياة الا من طريق تفكير الزوج وارضائه . لقد أبى الزوج هذا وأراد أن تكون زوجه جديدة متصلة بالعالم من حيث هو حركة دائمة ، فهو سعيد بزوجته عند ما يراها حرة مطلقة تغامر في الحياة

« ان الرجل القوي الذي يحب انسانة لا يتردد في تعطيم السكة بأسنانه كما يفعل ، أما الذي يحب انساناً الحي فيود أن يراه سابحاً في الماء »

ولكنها زوجة تأبى الحضور الى الآداب العامة في حين ان الزوج يود صادقاً

« أن يحل القيود القديمة وأن يخرج بها من ظلمة التقاليد الى نور العصر الجديد »

ويرغب كما تقول الزوجة :

« أن أمزج وإياه مناهج الغربيين فتكون الدنيا بحذافيرها ذلك البيت الذي نقيم فيه »

وانها لتسأل « أي شأن لي مع العالم الخارجي ؟ » فيجيبها :

« ان العالم الخارجي قد يكون له شأن منك »

وتظل بيالا لا تحاري الزوج في تطلعه ، فهو يرجو أن يجد في زوجته المرأة التي تتساوى والرجل في الحب ، أو في الأقل تتساوى وإياه في حرية الافضاء بالحب . وهو يرجو

ان يجد في زوجته امرأة التي يلتمس في قلبها بالحقيقة سافرة لأنه يؤمن

« بأن الحقيقة غير موجودة ، إلا في قلب المرأة فهي التي تعرف أن تكون جبارة ، غضبها حقيقة كالعاصفة المياه ، ولكنها جبلة رادعة حين تبدأ العاصفة فيشرق على قلبها الصفاء والدعة والنسيان »

وهو يرجو أن يجد في زوجته « المرأة التي تخلق الجنان في قلب الرجل وان لم تكن جبلة »

يريد زوجته « ان تكون امرأة قادرة على الخلق والايجاد والابداع »

يريد أن تكون

« مصدر وحي ثائر وأن يهتف الناس باسمها على أنها امرأة قد خلقها الله خلق مضمور فنان وألا تكون كالرجل خلق بالطرقة والسندان »

هو الزوج الذي يريد من زوجته أن تكون

« كصيدلية بها من المخدر ما يكفي لتخدير أعصاب الرجل فلا يشعر إلا كما يشعر النائمون المخدرون ، ولا يحس ايلام الجرح إلا عندما يستفيق »

يريد من زوجته أن تكون على سجيتها

« كالماء بركة مفيدة حين تجري ساكنة هادئة ، وهي قوة مخربة حين تهيج وتطغى »

يريد من زوجته أن تعلم

« ان الرجل يحب زهو الالوان ، وانه يؤثر الدعوة على الاغراء وانها يجب أن تتقي شره الرجال فتحول نفسها الى شراب مسكر وانها امرأة من واجبها أن تعلم حقاً انها في حاجة دائماً الى مخادعة الرجل واستهوائه ، وان ليس أطيب الى الرجل من أن يعيش معه مخدوعاً دائماً في عالم من الاماني والاحلام »

يريد منها ان تكون امرأة لا تعرف التردد « لان التردد ليس من طبيعة المرأة »

يريد منها أن تحكم دائماً في رقاب الرجال كطبيعتها وغريزتها وأن تصرح دائماً بما في قلبها ، وأن تقول أبداً « اني أريد » ، ان قالة « أريد »

« هي كلمة المرأة الاولى التي لا يوحي اليها بشيء لانها مصدر الوحي والسيطرة وسر القوة في الحياة ، فقد أرادت الطبيعة للمرأة ان تملك أقوى قوة في الوجود فضحت بالملايين من الحيوان خلال الملايين من السنين فاستملكت الرجل — ان الارادة قد استعانت أن تشكل انساني فتكونت في صورة المرأة ، ولهذا حاول الجبناء من الرجال بالهدين تقييد هذه القوة فأخفقوا ، وهي وان كانت ساكنة هادئة فانما هي في سكون البحيرة العميقة كل اشتد الحبس وقوي الضغط عليها كلما تفجرت ساعة هياجها وطغيانها ، وستخرج البحيرة مخربة جسورها ، مهلكة ما حولها ، وسيطوف السجين هذا العالم ثائراً يقول : اني أريد اني أريد »

يريد الامير الهندي أن تعلم زوجته انها امرأة لا تعرف في الرجل إلا ضعفه

« وان الله حين خلق الرجل لم يكن قد تدرب بعد في الابداع فخلقه كما تيسر ، على حين ان دور المرأة كان قد صور فنانا مختارا كما تشاء »

ويريد الزوج أن يجد في زوجته هذه المرأة التي تستطيع أن تخلق في قلبه الغيرة

« لان الغيرة ضعف ، متى ضعفت في الرجل القوي تم للمرأة ما تريد من مكر وادلال واستلاب »

ولكن الزوجة « بيالا » بقيت امرأة احتواها الخلق الشرقي داخل الحريم وديعة تعبدُ ربَّها في خلاص وتفنى في سجودها بين يدي الزوج ، وتستولي على قلب الرجل لا من طريق القوة والايحاء ولكن من طريق الضعف والاستسلام . تريد أن تبقى دائماً حالمة في هدوء النوَّم المستوحى . ولبثت على حالها لا تجاري زوجها حتى ظهر في بلاد البنغال مبدأ النهضة الوطنية ومقاطعة البضائع الاجنبية ، فسرت فكرتها مع الدم في عروقها وأشعلت قلبها على الرغم من أن أبواب القصر كانت موصودة دون الصال ، ولكنها كانت تسمع نداء الوطن كالهمس لا تتبينهُ خلال النوافذ الاَّ انه نداء الضمير الوطني ، وانها تشعر بأنهُ نداءٌ مقترب منها ممتزج بقلبها ملتصق بعواطفها دون استئذان أمير أو سلطان ، وحدث ان زعيم هذه الحركة «ساناديب» اتصل بزوجها الامير واختلط بهِ داخل القصر لما بينهما من ود وصداقة ، على الرغم من ان الامير كان من معارضي هذا الزعيم في حركته الوطنية العنيفة ، ولكن ساناديب الزعيم الذي ملك عنان البلاغة قد أهاج مواطنيه ومثل الوطن كائناً يجب ان يعبد ويشر بمبادىء المقاطعة واتخذ ناحية من قصر الامير مكاناً لاجتماع وطني كبير شهدتهُ النساء لاول مرة من وراء حجاب ، وارتفع النشيد الوطني وملأت الحماسة كل مكان وانحدرت الجماهير الى القصر انحدار السيل من قمم الجبال ، ووقف الزعيم يخطب هذه الجماهير المتلهبة فأورى فيهم ناراً آكلة وحسبت الزوجة وحسب النساء معها ان «ساناديب» ليس ببشر وانما هو رسول من الآلهة ، جاء لهدايتهنَّ . وهنا اخترقت الزوجة بيالا الحجاب الذي يفصل بين النساء والرجال واقتحمت طريقها في قوة

« وشعرت بأن نواحاً قد تلاشت فلم تعد المرأة المحجبة زوج الراجاه ، بل صارت ممثلة لجميع نساء البنغال »

لم يكن الامير[1] من مؤيدي الزعيم « ساناديب » في أسلوبه العنيف الذي أراده لتوجيه حركة البلاد الوطنية ، فساناديب يريد حركة ثائرة كالبركان تخرِّب وتقتِّل وتهدِّم ، يريد الدماء

« لان الاستقلال شجرة لا تروى الا بدماء الضحايا »

ولكن الامير « نيكيل » يأبى التخريب ويشيد البناء ، ويريد الزعيم ان يخلق من الوطن هيكلاً وثنيًّا تعبده الناس وتضحي في سبيله الرقاب ولكن الامير الهندي يُعلن رأي تاجور في الوطنية فيقول :

« اني أخدم بلادي ولكني لا أعبدها ، فاني أعبد الحق وهو أعظم من بلادي ، أما من يعبد بلاده فانما يعبد الله دون شيء آخر وهو خطرٌ يجب انه قد يؤدي الانسان في سبيلها »

ولكن الزوجة اندفعت وراء بلاغة الزعيم وسحر بيانه فامتزجت في الحركة الوطنية ،

(١) أورد تاجور أكثر من آرائه في الوطنية والسياسة على لسان الامير نيكيل

وأخذ الزعيم ينفخ فيها ليخلق منها المرأة التي تقود حركة الوطن لخدعها ليستغل نهوض زوجها الذي أمسكه عنه . وشعرت الزوجة

« بأنهم انما تتفق على أنه لا بد له من أجل أن يخلقه ـ لا تفترق بجهالها قلوب الرجال . بين لان الرجل يجد كالبطولة والبلاغة التي تخرج اليها الزوجات : ولان الرجال في هذه النهضة كانوا يحتاجون الى إلهة ، ولن تكون إلهة سلوبة الجنان »

وكانت تحني نفسها بأمل هو أعذب الآمال ان قلبها فتقول دائماً

« ألا لست جديرة أن يجعلني إلهة النهضة ! »

وأخذت شخصية الزعيم الوطني تستهوي الزوجة بيمالا ، وكان كثير التردد على القصر فأصبح يدخل عليها وعلى زوجها دون استئذان ، وبدأت بيمالا تحس في حديث الزعيم لوناً ملتهباً « كالنور غير المنظور وصل الى قلبها ورأت عيني ساندیب تضيئان تماما كما يضيء المصباح المقدس في الهيكل وأخذ يضفي عليها من الأحاديث المغرية ما جعلتها تحسب نفسها الهة توحي الجنان والقوة والالهام الى زعيم النهضة الكبرى التي تقود البلاد ، وأيقنت في نفسها مما املاه عليها ساندیب لن لها من القوة الكامنة ما تستطيع به اقتحام أعظم الأمور ، وان تلك هي قوة روحية جاءتها من وحي بعيد عن نفسها »

وقوي الشك وترددت الظنون داخل قصر الامير كلما ظهر ساندیب في غرفة الزوجة . والزوج يراقب الامور تسير دون اعتراض منه . ولكن الزوجة لم تكن لتعبأ بشك أو ظان لانها تحدث نفسها فتستمع الى قلبها ينادي

« من أجل الخضوع في سبيل الحب ما لذته وقد رق صوت ساندیب ولان حتى صار دلالا وتحولت نظراته فصارت مهراً وتوسلا ، وتقاطر وجوده حتى خيل إلي أنه قد انتزعني من نفسي »

ولكن الزعيم لا يكتفي بأن يختلس قلب الزوجة من زوجها ، فهو رجل أنير بغي حياته على :

« ان كل ما يستطيع انتزاعه من الآخرين فانما هو له . وان الحياة في نظره غادة حسناء لا يعرف معنى العفاف ولا تدعم بقياد إلا للعصوف ، لانه يحب العنف والاختطاف ، انها ان تمنح زهراتها متزهدين »

هو رجل تتمثل فيه الحيوانية وتطغى عليه الانانية فيرى في خلق صديقه الأمير ضعفاً يتعارض مع طبيعة الحياة — انه لا يريد أن يخرج من الدنيا فارغ المعدة غير مزود إلا بكلمات رنانة لا يقنع بها غير البلهاء . انه يؤمن

« بان الجمع مشيء وتولاه قد كفرت الاموال ، وتقنعت النفوس — وان حقيقة الحياة هي عو قوي يبني ويجمع المال ، ولمن يستخدم قوته وحيلته لثروة هذه الاموال »

ويا لساندیب من زعيم دموي جبار قد احاط بالعنف والانانية واحتوائها في نفسه حين يقول :

« ان العدالة لا توافق غير صغار الاحلام أما العظماء فهم الذين يؤثرون الظلم ليعيشوا فوق الهامات »

« لقد كانت البراكين عادلة يوم نفثت بقرونها النارية الى الارض المنبسطة » ومنذ الذي يقول لقد مات البركان الارض يوم نفثت منها » لانه الظلم دائماً من ثورة تدعه » لانه لا يفوز إلا بالشدة — ولقد أغنى الظلم شعوباً وأمماً وأفراداً — وما كانت العدالة لتغني شيئاً ولذلك أراني أقدس الظلم وأخدمه بحياتي — وأدعو الناس في إخلاص الى ان خلاص بلادكم ان يكون إلا بمقابلة الظلم بمثله » فاظلموا تفوزوا »

اني لا أعترف بالفشل ولا بالتردد ولا بتأنيب الضمير » لهذا خلقت فتاجي في الحياة هو : اني أريد وان كان ما أريد . وبهذا دان لي النصر الاكيد

ان تأنيب الضمير مرض فكري يصيب العظماء من الناس ولا يدع لهم وقتاً لتأليف نفوسهم وكيانهم وعظمتهم » لانه لا يوجد التناسب بين حياتهم الخارجية وبين ميولهم التي يخفونها حتى عن نفوسهم

وانه ليقول » عندما استساغ بيالا زوج صديقه الامير ومهد في نفسه « خيانة أميره »

« أما نحن الصواري فان لنا آباءً وبراثن نغيص بها على الفريسة فنمتص دمها ونمزقها إرباً » ان تقنع بالاجترار متأكل العشب في الصباح لتجتره كالمواشي في المساء » نحن لن نسمح لهؤلاء الذين يعيشون في الفراديس أن ينقضوا أبوابها دوننا » لابد أن نسرق غدهم لنعيش . ان عاطفة الدم هي العاطفة التي تقود النساء وتثب على غرائزهن . ان العاطفة التي تجذب النساء لا توجد إلا عند عظماء الرجال » والنساء هن حطب الثورات وشريان الدماء »

تخلق ساندیب خلق اناني » لا يرى حرجاً في اختطاف أية امرأة سائغة له فهو اباحي يقول:

« لقد راجعت حسابي مع الطبيعة فوجدت ان امتزاجي بامرأة خاصة هو بدعة لا تنسجم امتزاجي بغيرها »

وهو بهذا الخلق الجائع ينظر بعينين جائعتين الى بيالا زوج الامير الكريم » وهو بهذا النظر يريد ان يخلق من وداعة المرأة الشرقية الحفيظة على عقيلها وزوجها » امرأة ثائرة على البيت تستقبل العالم كأن الرجال جميعاً متع لها ولشهواتها الجائعة

وانه لا يرى في هدوء المرأة ودعتها الا استكانة لذلة وتلبية للقيود والاغلال التي رسفت فيها القرون تلو القرون . ولئن فكت امرأة من أسارها واطلق لها العنان لانطلقت كالعاصفة أو كالنار لا تبقي ولا تذر — وانه لزعيم ثائر يريد ان يستهوي الجماعات كذباً وتزويراً تلبيةً لاهوائه » ويريد ان يوجه الجماعات كما يريد » وان يستولي عليهم استيلاء الكاهن الفاسق الذي تعبده الجماعات وتحج اليه مصليةً طائعة — وانه لهذا لابد له من امرأة ذات نفوذ وهي امرأة الامير الثاني . ولا بد أن يخلق منها تمثالاً ساقراً » هو لعبته ومستغله وهو له الجماهير يقدمه لهم إلهاً فاعبدوا هذا الله الوطن : ان من يصطنع من المرأة إلهاً فله أن يستمتع به وان يهدمه متى شاء

ولقد احس تاجوران الثورة الهندية قد افسدت على المرأة الهندية حياتها الزوجية الوادعة فأطلقتها دون حيطة أو تريث الى العالم الخارجي — ولقد بان ذلك على لسان ساندیب فقال :

« ان بيالا لتضطرب كما تضطرب الخامة حين سقوطها في الفخ . من حق أن أفرح لهذا المشهد كما يفرح الصياد

آني ما شئت بيالا بالضعف والوهن بل اني ألمت جناحيها برجولتي وبأسي وقوتي . . . سأوحد بيالا بالوطن — إن هذا الهواء الغربي العنيف الذي نزع حجاب الضمير عن البلاد سينزع عن بيالا حجاب الزوجة ، فترى منظراً رائعاً من الخلاص وتحل قيودها دون خجل ، بل دون أن تشعر . وان تتردد لحظة في الجنوح الى القسوة . ان القسوة من طبيعة المرأة ولها من قوة الارادة ما تصون به جمالها

أن المرأة لو استطاعت ان تتخلص من القيود الحديدية التي قيدها بها الرجل لرأيناها على الارض مثال الالهة « كالي » الهة التدمير والقسوة والازدراء !

اني من عباد هذه الالهة . اني سأعبدها يوما باسم بيالا حين أجلسها في الهيكل على عرش التخريب الذي أعده لها

هذا هو الشيطان الذي أفسد حياة الأمير واخرج حواءه من جنته كما صوّر تاجور

***

ولكن الزوج النبيل رأى ان زوجته قد أصبحت فريسة لنيران جرفها ، ولم يشأ ان يكون عنيفاً ، فليس من طبعه العنف فيصد زوجته عن ارادتها ، وانهُ ليخاطبها :

« اني أيتها الزوجة الحبيبة لاعلم اني أقيد نفسي بقيد من حديد اذا قيدتك ، وأية فائدة لي من القيود ، فلك حريتك فأنا أحب أن أكون زوجك لا سجانك »

لقد شاء تاجور أن يصور لنا زوجاً مثالياً ، لا يتعرب أية قوامة على زوجته ، بل يلذ لهُ أن يدع الزوجة حرة مباحة العاطفة والتفكير والخواطر ، وانه عند ما يهب زوجته دستورها في الحياة فانما هو الآخر سينال من قلبها أعز شعور وأكرم وجدان — وانه ما كان لينال من قلب المرأة هذا الحنان الصافي اذ هو استبد بها وأكرهها على ما يحب ويريد ويرضى ، فالمرأة عاطفة وقلب ، وما كانت لعاطفة ان تنزع قسراً ، وما كان لامرأة أن تهب نفسها خالصة لزوج طاغٍ جبار

طافت هذه الاحلام الكريمة في رأس الزوج وآمن بها ، ولكن زوجته امرأة تعبد القوة وترتضي من الزوج قسوته وعنفه وشدته ، لانها تعشق في الزوج رجولته ، وتأبى عليه الليونة والدعة ، وهي امرأة ، وامرأة مخلوق جبلته السنون على أن يكون مأموراً فيضيع وضعيفاً فيرضى وذليلاً فيخاف . انها متى صادفت ذلك الزوج المثالي أتهمته بالفتور وضعف العزيمة لانه لا يعرف كيف يضع العنان في فم المرأة ، إنه رجل ضعيف لانه قد فقد الغيرة وحرم العنف والشدة ، وهي إنما تعبد في الرجل القوة فتخضع والعنف فترضى

« ان بيالا ، تعربي حق التعرية ، فالى اعد العنف والضغط ضعفاً وخوراً . فليس يخاف من العدل غير الضعيف ، فهو الذي ينزع عن واجب العدل ويحاول بين النتائج المباشرة من فرط الظلم والجور والاستبداد . ان بيالا ترتضي الغضب والظلم من الرجل لانها لا تستطيع ان تحترم من لا تخافه »

ولقد حرر الزوج زوجته من جميع الالتزامات الزوجية . لأنه قد وجد فيها القيود والأغلال فتركها مطلقة وكانت ربة بيته ومملكة آماله ، فخرجت الى العالم تحمل تيارات عنيفة ، فما ان استقر بها الأمر وسط هذه التيارات الجارفة : تغلبت الغريزة فاندفعت تحت تأثير الايحاء والاشهواء فأخذت تبحث عن هذا الاله القوي الجبار الذي يأمر ويقضي والذي لم تجده في زوجها الوادع ، لقد أخذت تبحث عمن يشبع غرائزها فوجدت هذا الاله العنيف في شخص الزعيم ساندیب. فعبدت فيه ما افتقدت في زوجها من قوة وعنف واستبداد . وأخذت تتكر على زوجها خلقه وتتهمه بأنه ضعيف قد فرط في حق الزوجة والوطن . انه لم يشترك في هياج أو تخريب أو تهليل للزعيم ، وهذه كلها أقيسة للوطنية الصادقة ، ان الوطن هو ساندیب فاذا لم يحب زوجها ساندیب فهو خائن لايحب وطنه ، ولقد أحس الزوج بهذا الحرج من زوجته ولكنه مع ذلك تركها وعقيدتها لا يعنفها ولا يثيرها ولا يصدها لأنه قد أصبحت امرأة أخرى ، قد فقدت إرادتها تسير دون وعي منها متأثرة بشخصية ساندیب ، ولقد شاء ساندیب أن يمد يده الى مال الأمير فدبر مؤامرة أحكم تنفيذها بأن أفهم الزوجة بأن الحركة الوطنية في حاجة الى مال وان المال لا بد منه وان الاغنياء والامراء قد أمسكوا أيديهم لضعف وطنيتهم ، فأخذت الزوجة تغضب على هؤلاء الممسكين فدبر الأمر حتى اجتمع الرأي لديها على أن تسرق مال زوجها لتمد ساندیب بما طلب تلبية لنداء الوطن ، والزوجة لا ترى حرجاً فيما أتت ، فلقد أصبحت لصة أمام الضمير والقانون ولكنها كانت العاشق المستهتر لا ارادة له ولا بصر

والزوج قد يعمى بكل شيء ، وقد يجد ان أمرأته قد أثمت ولكنه يلتمس لها المعاذير ، وأنى يجدي التوجيه أو النصح وقد أفلت العصفور من القفص !

فهو يحدث نفسه عند ما علم ان بيالا قد سرقت مالا تمد به الحركة الوطنية فيقول :

« ان بيالا قد اضطرت الى سرقة المال لأنها لا تستطيع ان تميز بين الوطن وبين هذا المال من طريق الدين . ولا بد أنها تعلم أني الخائف أراها باستبدادي وتمسكي برأيي . فمن الخير بالنسبة الي أن لا يقيدوني إلا بفكر واحد — وليس يتفق مع هؤلاء المستبدين إلا فكرهم إلا الذين يخدعونهم حتى فالمثل لا يصلح ترقيق وتعدد الزوجات »

وكم كانت بيالا صادقة كل الصدق عندما أحست أنها قد امتلكت قلب زوجها وانه قد أحاطها بقلبه دون عقله فهي تقول

« ان الشيء الوحيد الذي يمكن أن يكون فوق أن يمكن من قلب المرأة »

ولقد أصبح الزوج يتردد في فهم العلاقة الزوجية ، فهو يحدث نفسه اذ وجد زوجته قد خرجت من بيته الى العالم فيقول :

امرأتي ؟ وما معنى امرأة ؟ انها القناعة جبلة امتلأت بأنفاسك وحفظتها الليل والنهار ، ولكنها مع ذلك تتفجر وتصبح هباء لاصفع اصطدام

امرأتي ؟ ولكن كيف أتى لي هذا التملك ؟ فمن قالت لي اني لنفسي ، فكيف أقول لها ، لا ، بل انك لي أنا ؟ وهل استطيع ان أحبس شخصية كاملة في حدود هذا الاسم ، وأسجن شخص بيالا في نقطة الزوجة ؟

ولكن الزوج عاد يوماً الى نفسه يحدثها مؤنباً فيقول :

« وكنت أحسب انها حين تتخلص من الواجبات البيتية تكون قد تخلصت من الظلم وتكفي رأيت عندما أندفعت من البيت الى الفناء الخارجي ان الظلم قد سرى الى دمها وانه فطري فيها ، فهي تميل الى القسوة حتى انها أصبحت لا تنكر القتل . أما انا فاني ارى أداء الواجب اخلالا به اذا كان هذا الاداء من سبيل العنف وبتأثير الهيج . ولاشك انها تعدني ضعيفاً وغير وطني وتلقم علي لاني لا اعدو مع صبيان الازقة متظاهراً أنشد معهم النشيد الوطني »

وأخيراً لا بد للفضيلة أن تنتصر . فيستمع الزوج نداء الضمير يحاسبه :

« لقد اطلقت العنان لزوجي فانطلقت دون وعي مني ، وتلاشت هذه المعاني المقدسة التي كانت تشرق علي مني منذ دخلته بيالا بقلب خفق ، وكانت تراني زوجها المعبود وتجد سعادتها في ان تشعر دائماً بولايتي عليها . لقد كنت ظالما حينما حاولت ان اجعل بيالا كما تريد فطرتي لا كما تدعو فطرتها هي . لقد كنت مستبداً عندما اطلقت لها عنان الحرية . لقد تأثرت بشخصية ساديب لانها لم تجد في زوجها عنده الشخصية التي يجب ان تخضع لعظمتها فتعبدها وتجد امامها دائماً . ان شخصية الرجل يجب أن تقود الزوجة دائماً وإلا بحثت الزوجة عن معبود آخر يقودها . امرأتي ؟ لست املكك ولكنك وديعة ذات شخصية لها معانيها وقيمها — وليست الزوجة عدة تسير في الطالب الذي يريده الرجل

وانتصرت الفضيلة مرة أخرى عند ما جلست الزوجة يحاسبها ضميرها فتقول :

« لابد لي من ان اعترف بأني حين سرقت مال زوجي واعطيته لساديب بقصد بيعه وبين ساديب كل امتزاج روحي وذهب كل ما كان له علي من السلطان وصرت اسمع اقواله فأجدها جافية مبتذلة بعد ان كانت وحياً مملوءاً بالعاطفة واليقظة والحياة ... » ويح لي انني اريد ان اجعل الذل المروق ولكن الرتكاب الذنب ليس بالامر اليسير فالسير هو التكفير عن هذا الذنب » ... « ولم اغفر لي هذه السقطة وانسحني تلك الدقيقة التي اسكرتني عندما كنت معي ، وهون علي عذابي لاستطيع احتماله ، فليس غير انهماك اللاهجائية يجري ما تلف ويطير ما تتدنس . الا توسيفاك بيتي ، انها كل ما بقي لي » ... « ان الذي يقطع قلبي هو خوفي ان لا تعود سعادتي الزوجية الى ما كانت عليه من قبل . ان الله يستطيع ان يخلق جديداً ولكن هل يستطيع ربي أن يعيد خلق ما تلف وتلاشى ؟

« لقد دفعني عاطفة التوبة فقدمت منزلي وخلفت سبيلي ، فلا اعلم الفتاة من سيري . اني متجردة في ظلام الليل

ولكن تاجور قد أعلن رأيه في امرأة مذكب في صباه مسرحيته الصغيرة «الخالدة شيترا»

وشيترا ابنة ملوك مانيبور الذين أعطاهم الله عهداً أن يكون من نسلهم دائماً ذكر يرث ملكهم ويحمي ذمارهم ؛ حتى جاءت شيترا أول من ولدت أنثى ، فشاء أبوها أن ينشئها تنشئة الرجال ، وأن يروضها على الحياة منذ حداثتها ، على أعمال الحرب والصيد والفروسية فألبسها لباس الفرسان وتركها في الغابات بين الوحوش تتدرب بها وتصيد منها وظلت على هذه الحال لم تر عينها رجلاً ، فظن أبوها أنه قد قهرها أنوثتها ، وأنه قد عالج ما قهرته عليه القدر من حرمان الولد الذكر الذي سيرث ملكه إذ استطاع أن يخلق من أنثاه ذكراً سوياً

ولكن شيترا خرجت على عادتها ذات يوم الى الغاب في طلب الصيد فالتقت بشاب باسك يدعى أرجونا وهنا تحدثك شيترا فتقول :

« لقد رأيت رأسه في الغاب وحدي ورجلاه قد وقفا في سبيلي فأمرته أن يفسح لي الطريق فلم يعبأ بأمري فوخزته بقذيفة وهي فوق ناهضة على القمة كأنه نسر من نار قد اندفع فجأة من هشيم الرماد ، وانفجر ثغره عن ابتسامة حلوة . . . ولأول مرة في حياتي شعرت بأني أنثى ووقفت بوجودي أمام رجل . . . لقد كسرت عودي ونبذتني ، والقيت الى النار سهامي ، وازورت عيناي بعد أن شدتهما الرماية . . . ايه أيها الغرام ، لقد طوحت بكبريائي ورميت باسترجائي الى حضيض الارض . اني استحق كل تجاويبي تحت قدميك فهات دروسك ، وهبني قوة الضعيف العاجز وسلاح اليد الذلى »

وخلعت شيترا لأول مرة في حياتها لباس الرجال وسعت الى أول رجل رأته عيناها في أساور وحرير وأرجوان وحجال مشيرة الى ظهر الرجولة وثيابها بقوتها

« انه كان يقدم الشباب دليلاً لي وعوني »

وأي لوعة تمزج بقلب شيترا يوم سمعت الى لمة الجمال تبهرها جمال الأنوثة الغالبة واذ عاد اليها جلال الأنوثة أحست أنها امرأة التي تجب أن تستعبد الرجال وانها لتقول لزوجها دائماً :

ان الهدية التي تقدمها اليك يدا مخورة معجبة هي قلب سيدة

ويوم دهش جمال الشاب عنها غابت أن يراها الرجل فقالت له :

« سيدي لقد كنت أريد أن أهدي اليك قلب المرأة في هذا الثوب فقد نزعت آلامه عنه . وانطرحت آمال شابة هذه في هذا الثوب عند قدميك ، ولكن لا أن تجد حياة جديدة ولكنه عجز عن ادراك عيبه ، وهو عجز شريف عظيم ، لأنه لا يستطيع ان يغير الطبيعة — واليوم وانه دهمت بصيرة الجمال عيني قائل هذه المرأة كعذراء تخدمك فتبة بيديك »

باب المراسلة والمناظرة

تراث العرب العلمي

مراجعة وتقدير : لأحمد ابو الخضر منسي

رافقت مجلة المقتطف الغراء السنين الكثار ، وتداولتها عهود وأحقاب ، وغيّر وأحداث وهي في ميدانها مُرتبة تسابق في نشر المعارف وتصول في خدمة العلوم والآداب

وأنمى مجهودها وزادها فضلاً انها منذ نشأت ، تعمل على نشر المؤلفات ألواناً وأشتاتاً ، واذاعة آثار المؤلفين والمترجمين بين الناس ، كهدايا لمشتركيها ، ولغيرهم أن يقتنيها بالشراء في الاسواق

ويا حُسنَ كتب نشرتها ! طائفة جليلة من مؤلفات ومترجمات علمية وأدبية كنفيس اللؤلؤ والجمان : (مصر الاسلامية) ، (تراث مصر القديمة) ، (رجال المال والاعمال) (جمهورية افلاطون) ، (أساطين العلم الحديث) ، (آفاق العلم الحديث) ، وما الى ذلك من الاسفار النفيسة التي أفادت بنشرها العلم والادب في ربوعنا

واذا كان للمؤلفين والمترجمين الكتب النافعة فضل ، فان للناشرين الذين يعاونون في اذاعة هذه الآثار فضلاً مثلهُ ، ولاسيما في هذا البلد ، وفي هذا الزمن العجز غير القادرين من اصحابها على الانفاق . ويزيد فضل (المقتطف) استمرارها في نشر الكتب في سنين هذه الحرب الضروس . وأنت عليم بما صار اليه الورق من فاحش الغلاء

وكان آخر ما أخرجته مجلة المقتطف ، هديتها السنوية لعام ١٩٤٦ ، كتاباً من أنفس الكتب ونادرها ، هو « كتاب تراث العرب العلمي » لمؤلفه الاستاذ العالم قدري حافظ طوقان ، مدير كلية النجاح بنابلس وأستاذ الرياضيات فيها

***

طغى سيل الحضارة الاوروبية الطامي ، وكاد يجرفنا ويطوي ذكرنا كطي السجل للكتاب وإذ كنا نسينا تاريخنا أو تناسيناه ، وأغفلنا ماضينا ونبذناه ، وسهونا عما لنا من مجد تليد ، وحضارة بهرت عيون المبصرين ، فنخاذلنا وحلا مذاق النوم في عيوننا ، وتغلغل الضعف في عزائمنا وهممنا ، رحنا نقلد أولئك الاوربيين ، في كل متجه من أمورهم تقليد المستضعفين للاقوياء ، نظن الحسن البهيج كل ما صنعوا ، وانهم من الابداع بحيث قد أتوا بما لم تأت به

أوائلنا ، ولو لم نتعرض عن قديمنا وماضينا . ولو أبقياه موصول الاسباب بحاضرنا ، لباهيناهم ببدائعنا ، ولكان لنا شأن غير هذا الشأن

بل هؤلاء الاوروبيون مثل ضيف من يسارع ما أن تقديمهم دون وعي ، في الاحتفاظ بقديمهم ، والتفاخر بتديمهم وما هو نعمري ، وطاروا في الافق الاعلى ، إلا أمركوم ومدثر قديمهم ، ضموه ضم الخافق الصانع في سمط واحد الى حديثهم الباهر ، وحاضرهم الزاهر

انما هم مثل لنا ، لا في حفظ قديم في الادب والعلم فقط ، بل في حفظ قديمنا نحن واسفاه ! هم هم الذين أذاعوا قديمنا في العلوم والآداب ، وهم هم الذين عرفنا منهم ، ما أخرج علماؤنا وأدباؤنا ومخترعونا ومكتشفونا الاولون ، من عجائب الصنعة ، وذخار البدائع ، ونفائس الاسفار

أنما الفضل كل الفضل لاولئك العلماء الاوروبيين الذي صُبُّوا على دراسة العربية ، وتفقهوا فيها وتعمقوا بالمستشرقين في اكثر ما نعلم الآن مما غير من عهد لنا كالعهود ، وتماعاً ، وما ابدع اوائلنا من فنون العلوم ، وآيات الاختراعات والاكتشافات ، ونفائس المؤلفات والمترجمات

وإنك لتعجب حين تقع عليك ما ورد في كتاب (تراث العرب العلمي) هذا في صفحة ١٧٩ اذ يحدثنا الاستاذ المفضال قدري حافظ طوقان عن احد أفذاذ علمائنا السالفين فيقول:

« ومن الغريب ان فضل روسيا في تبريز في منتصف القرن الماضي ، عثر صدفة على كتاب ميزان الحكمة وقد كتب عنه عدة مقالات في احدى المجلات الأميركية . ولعل العلماء الالمان اكثر العلماء اعتناء بآثار الخازن . » ثم يقول :

« ولا أكون مبالغاً اذا قلت انه لولا فضل روسيا N. Khanikoff وبعض المستشرقين من المستشرقين والباحثين لما عرفنا شيئاً عن الخازن . ولما كان لي الآن اخير هذه الترجمة »

ويقول في صفحة ٢٤٠ في الترجمة لابن حمزة المغربي واضع اصول التوقيعات :

« نقول هذا مع اعترافنا بفضله المستشرقون من علماء اوروبا واميركا في البحث عن مآثر اسلافنا ، وفي الكشف عن غوامضها . وتدفعنا الصراحة العلمية الى القول انه لولا هؤلاء لما عرفنا شيئاً عن تراثنا وما وصل اليه المسلمون في العلوم والفنون . ونرى واجباً علينا ان نصرّح ان الفضل في اظهار جهود العرب الفكرية في ميادين المعرفة المتنوعة يرجع فقط الى المنصفين من علماء الافرنج لا اليهم

بيدنا الآن ، ونحن نكتب هذه السطور كتاب « اكتفاء القنوع بما هو مطبوع » المؤلفه ادورد فنديك ، وهو من أجل التآليف العربية فيما اخرجت المطابع الشرقية والغربية من نفائس الكتب العربية ، على غرار كتاب الفهرست لابن النديم ، وكتاب كشف الظنون لحاجي خليفة ، فما نطرف عيننا على اسم مصنف فيه من الوف المصنفات العربية المختلفة ، من عصر

الجاهلية الى غاية القرن السابع الهجري الا ونجد ان طابعيه وناشريه العلماء هم المستشرقون من سلاين ، وشولتنز ، ولاندبرج ، ودوساسي ، ومولر ، ووستنفلد ، وهوارث ، وآماري ، ودوزي ، وتالبشر ، وكثيرون أمثالهم ، بان هذه الالوف من المؤلفات العربية أخرجتها مطابع لايبسك ولايدن ، واكسفورد ، وباريس ، وفيينا ، وكوبنهاجن ، وبطرسبورج ، وغيرها من أمهات مدن اوربا

وانك لتقضي عجباً حين تعلم أن نفس ما أخرجه علماؤنا ، وأدباؤنا وشعراؤنا ، ولغويونا من مؤلفات في تلك العصور الغابرة ، خطياً ومطبوعاً ، مدفونة في عصرنا هذا في خمس عشرة خزانة من خزائن الكتب في برلين وجوتا ولايبسك في المانيا ، وقصر الاسكوريال في اسبانيا ، وروما وفلورنسة في ايطاليا ، وكوبنهاجن ، في الدانمرك ولايدن في هولنده ، ولندن واكسفورد في انجلترا ولوند وأبسالا في أسوج ، وباريس في فرنسا ، وبطرسبورج او لننجراد اليوم في روسيا ، وفيينا في النمسا

فلا غرو ان نهش ونبش ، ونرحب ونهلل لهذا الكتاب القيم (تراث العرب العلمي) اذ نحن أولى بأنفسنا ، ونحن بذكر قديمنا والتعريف بعلمائنا ونوابغنا الذاهبين احق وأجدر أراد الاستاذ طوقان بعث الثقافة العربية فينا وفي هذا يقول :

« ان بعث الثقافة من أهم العوامل التي ترتكز عليها النهضات والحركات . وان الامة التي تبغي مجداً عليها ان تخلق في الافراد روح الايمان بقابليتهم على الابتداع ، وان تنشىء فيهم الشعور بالعزة القومية ، وذلك بالاهتمام بماضيها وربطه بحاضرها ، وتعريف الناشئة بجهود أسلافهم وما آثروهم في ميادين العلوم ، وما كان لها من أثر في تقدم الحضارة »

« وقد قامت الامة اليونانية مثلاً في حركتها الاستقلالية في القرن الماضي ، وتوفقت فيها ، واستطاعت أن تبني كيانا وتكون شخصية دولية . وكان من أهم عوامل نجاح هذه الحركة الاهتمام بالماضي والرجوع اليه . فلقد قامت الهيئات هناك وكشفت عن مآثر علماء اليونان ونوابغهم في العلوم والآداب والفلسفة ، وأظهرت فضل أسلافهم على المدنية وبينوا للناشئة ان أجدادهم كانوا قادة هذا العالم وانهم يستطيعون باقتفاء آثارهم ان يعيدوا تالد مجدهم وباذخ عزهم فزرعوا بذور الفاطنية والاعتزاز في الافراد وأثمرت هذه البذور ثمرات يانعات عادت على اليونان بالاستقلال والحرية . وهناك من الامم من لا تاريخ لها فراح علماؤها يختلقون لامتهم ماضياً ويعملون على اخراجه الى ناشئتهم في أحسن صورة ، فتمكنوا من خلق روح الاعتزاز ومن ايجاد الاقدام والارادة في نفوس الافراد والجماعات »

وتهز حزازة ، وتهيجه أحزان فيقول :

« وأصبحنا هدفاً لمرمى نكباتنا ، منكرين ميراثنا لا نرى فيه خيراً ولا جمالاً ، ولا متاعاً ولا انتفاعاً ، ورحنا مفتونين بالحضارة الغربية ، عاكفين عليها ، ساخطين تاريخنا وحضارتنا . وأصبحنا نعرف عن شكسبير ودانتي وجيتي وفراداي ونيوتن وداروين وباستور ، أكثر مما نعرف عن المتنبي والمعري والبيروني والموزجاني والخوارزمي وابن الهيثم والبتاني وجابر بن أفلح وابن رشد والكندي وغيرهم ، وأصبحنا نرى في المدنية الاوروبية كل الخير وكل الجمال ، وكل الشعاع وكل الانتفاع »

حدثنا الاستاذ فوتن ، في كتابه عن مآثر العرب في العلوم الرياضية والفلكية وما وضعوا ، وما ابتدعوا وما اكتشفوا ، في أشتات هذه العلوم وأقسامها ، ونقش لنا صوراً أتقن ألوانها ، وأحكم أشكالها لطائفة جمة من علمائنا وأدبائنا العباقرة الاولين منذ القرن التاسع للميلاد الى السابع عشر

والتراث الذي أحرزناه وضربنا عنه وأسفاه ! صفحاً ، وغضضنا عنه طرفاً ، يطلع الارض سعة وامتداداً ، منتهى السماك علوّاً وارتفاعاً ، ومباغ النجوم كثرة وتعداداً . بناء ضخم عجيب ملأت جوانبه الفضاء وعانقت شرفاته قطع السحاب . تروعك عجائبه ، وتبهرك بدائعه . وانك لتهتز طرباً وتترع عزة واختيالاً حين تعلم أن علماءنا أولئك كانوا أساتذة أوروبا ، أخرجوها من الظلمات الى النور ، وجلوا لأبصارها ما استتر دونها من علوم الفرس والهند واليونان في غابر الدهور . يقول الاستاذ فوتن في مقدمة كتابه النفيس صفحة ٢ :

« وقد قال أحد علماء الافرنج ان بعض ابتكارات واختراعات حسبناها من عملنا ثبت بعد قليل ان العرب سبقونا اليها ... قال فلوريان : « كان للعرب عصر مجيد عرفوا فيه بانكبابهم على الدرس وسعيهم في ترقية العلم والفن . ولا مبالغة اذ قلنا ان أوروبه مدينة لهم بخدمتهم العلمية : تلك الخدمة التي كانت الدعامة الاولى والاكبر في نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد ... وقال العالم الفرنسي الكبير سيديو : « ان نتاج أفكارهم الغزيرة ومخترعاتهم النفيسة تشهد انهم أساتذة أهل أوروبا في جميع الاشياء »

وذا ما أحب الاستاذ فوتن تفصيله وتبيانه في كتابه هذا . فذكر لنا ان أجدادنا العرب هم واضعو أساس الطريقة العلمية الحديثة ، والناقلون فلسفة اقليدس فعرفها الاوروبيون عنهم ، والمقتبسون الارقام الهندية بعد تهذيبهم ، وعدها الاوربيون عنهم ، وانهم اليهم مرجع الفضل في وضع علم المثلثات بشكله العلمي منفصلاً عن علم الفلك ، وفيما أسبغوا عليه من الاضافات القيمة التي حملت الكثيرين يعدونه علماً عربياً كما عدّوا الهندسة علماً يونانياً

ونقلوا علم الفلك فصححوا بعضه ، ونقحوا بعضاً ، زادوا فيه ما زادوا ، وأكبوا على

الارصاد فصححوا القديم منها وأتوا بالحديث الطريف ، وأنشأوا المراصد الجمة ، وابتدعوا الآلات الفلكية العديدة . وهم القائلون باستدارة الارض وبدورانها على محورها ، والكاشفون بعض أنواع الخلل في حركة القمر . ولقد كتبوا عن كلف الشمس وعرفوها قبل أوروبا . ووضعوا للنجوم أسماء استعملها الفرنج في لغاتهم بألفاظها العربية

وهم الذين وضعوا علم الجبر ومهدوا لاختراع ذلك النوع الرياضي المعروف باللوغارتمات واخترعوا رقاص الساعات ، وكأين من أناس كانوا يعتقدون أن الرقاص من مخترعات العالم الفلكي غاليليو ، وشتان الرقاص هو العالم الفلكي المصري ابن يونس الذي سبق غاليليو في معرفة بعض القوانين التي تتعلق بالرقاص . وقالوا بالتفاعل بين الاجرام السماوية المعروف بالجاذبية العامة ، وان الاجسام تتجه في سقوطها الى مركز الارض بقوة جذبها لها . وبينوا العلاقة بين سرعة سقوط الجسم نحو سطح الارض والبعد الذي يقطعهُ والزمن الذي يستغرقهُ ، مع ان المتعارف هو ان نيوتن السابق الى هذا وصاحبه

ووضعوا علم البصريات . واعترف العالم الفرنسي لوتير فيارد بأن كبلر اخذ معلوماته في الضوء والانكسار الضوئي عن كتب ابن الهيثم . وابن الهيثم هو الذي بحث في قوى تكبير العدسات ، ويرى كثيرون ان ما كتبهُ ابن الهيثم قد مهد السبيل لاستعمال العدسات في اصلاح عيوب العين . وهو اول من كتب في أقسام العين ورسمها برضوح تام ، ووضع الاسماء لبعض اقسامها ترجمها الفرنج الى لغاتهم

وهم الذين عرفوا ظواهر ضغط السوائل وتوازنها وصعود مياه الفوارات والعيون الى أعلى ، وكشفوا عدة امراض منها مرض الانكاستوما . وكان المعروف ان توريشللي هو أول من بحث في مادة الهواء ووزنه ، ولكنه ثبت ان العرب هم الذين بحثوا ذلك ، وبينوا ان للهواء قوة رافعة كالسوائل ، وان وزن الجسم المغمور في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي ، وان مقدار ما ينقصه من الوزن يتبع كثافة الهواء

ووضعوا عدة تصحيحات جغرافية نفيسة ، وكانوا أول من شرح ظاهرة قوس قزح ، وانها تحدث من وقوع أشعة الشمس على قطيرات الماء المستوى في الجو عند سقوط الامطار وانكسارها فيراها المبصرون على تلك الحال

أرأيت أيها الشرقي العربي هذا الكتاب كيف أتاك بالذي هو لك عزة ومفخرة ، ولنفسك هزة تأخذك فتطير بك الى الآفاق العلى ، تصل حاضرك بباهر ماضيك ، وتلائم حديثك بعناية القديم الذي أحدثته عن سالفيك . فتنهض نهضة ترد عليك ما فرط من غابرك الذي نعم فازدهى فيهر العالمين . انا لنشكر للاستاذ العالم الفضال حافظ قدري طوقان سعيه الحميد ومجهوده المجيد . جزاه الله عنا وعن العلم والحضارة العربية أحسن الجزاء وأوفاه

باب الأخبار العالمية

افتتاح جامعة فاروق الاول

يوم تاريخي مشهود في حياة الاسكندرية الجامعية

افتتحت في صباح ١٧ اكتوبر الدراسة في جميع كليات جامعة فاروق الاول فكان يوماً مشهوداً في تاريخ الاسكندرية العلمي وأخذت في الصباح الباكر وفود الطلبة والطالبات ترد على الكليات وما ان انتظم عقدهم حتى عقد العمداء كل منهم في كليته اجتماعاً تاريخيًّا التقى فيه بحضور هيئة التدريس والطلبة كلمة الافتتاح

وكان مما قاله الدكتور زكي عبد المتعال عميد كلية الحقوق انه باسم الله الذي القدير يفتتح العام الدراسي للكلية واذا ذكر العام الدراسي الاول فانه يقصد بذلك الكلية الجديدة في الجامعة الجديدة

وقال ان الجامعات القديمة كانت تنظم في العراء كمدرسة سقراط وتحدث اماكن في عهد سقراط وتحدث اماكن في اول عهد الاسلام معاهد للدرس العلم وان مصر حفظت الثقافة العالمية سواء كانت ثقافة فرعونية او يونانية او رومانية كما حفظت حضارة الاسلام

وأشار الى تاريخ الاسكندرية العلمي وقال انها بافتتاح جامعة فاروق الاول تصل حاضرها بماضيها البعيد

وبلغ عدد طلبة كلية الحقوق ٢٠٠ طالب منهم ثلاث طالبات

والقى الدكتور حسين فوزي عميد كلية العلوم كلمة أشاد فيها بعظمة هذا اليوم التاريخي وأشار الى ان القاهرة تباهي بقدم الجامعة الازهرية على ان الاسكندرية التي تفتتح جامعتها اليوم لا تقل انها كانت مهداً لاولى جامعات العالم

وأوصى الطلبة بالدرس والتحصيل وتوثيق الروابط بين الطالب والاستاذ وحرية الرأي

وبلغ عدد طلبة هذه الكلية في السنة الاولى ٧٣ طالباً وفي اعدادي الطب ٧٤ طالباً منهم طالبة

وتحدث الاستاذ عبد الحميد العبادي عميد كلية الآداب الى طلبته موجهاً وارشاداً اليهم باعتبارهم طلاب الآداب والفنون وانهم سيعملون في المستقبل على رفع مستواها في مصر وهي في حاجة الى نهضة أدبية تقوم على الأسس الحديثة جهد الطاقة

وبلغ عدد الطلبة في هذه الكلية ٢٥٠ طالباً منهم ٢٠ طالبة

واكتملت في مبانيها الاربع أقسام اللغتين العربية والانكليزية والفلسفة

وقال الاستاذ زكي حسن عميد كلية التجارة ان رسالة الكلية هي اعداد طائفة من

الشبان المصريين يستطيعون في المستقبل وبعد وقت قصير ان يتقلدوا الوظائف ذات المسؤولية في المنشآت التجارية والصناعية والمالية والدوائر الحكومية وسيكون أهم غرض لهذه الكلية تربية ملكات الاستقلال في الرأي والقدرة على الحكم الصائب في الأمور والميل الى البحث

وبلغ عدد طلبة السنة الاولى فيها نحو ٥٠ طالباً منهم طالبة واحدة

وكان كل من صاحب العزة مصطفى عامر بك وكيل الجامعة والاستاذ فريد ابو حديد السكرتير العام والاستاذ حسني عبد الرحيم معاون كلية الحقوق يشرفون على النظام في اثناء الافتتاح

قياس الاشعة التي فوق البنفسجي

صنع المهندسون الكهربيون بشركة وستنغهوس الاميركية جهازاً جديداً دقيق الاحساس بالاشعة التي فوق البنفسجي فيمكن العلماء من قياسها في مواقع مختلفة على سطح الارض . وهذا الجهاز يحتوي على فلز جديد يقذف كهيرباته عندما تقع عليه هذه الاشعة . ولا يقذفها إلاّ عند وقوعها عليه . وتجمع الكهيربات المقذوفة منه في حجرة صغيرة ثم ينطلق المجموع منها فيحدث تفريغاً كهربيًّا يسيراً . وعندما يحدث هذا التفريغ الكهربيّ يُعلم أن قدراً معيناً من الاشعة التي فوق البنفسجي قد وصل الارض من الشمس في ذلك الموقع

وقد صنع هؤلاء المهندسون عشرين جهازاً من هذا القبيل لمصلحة الأحوال الجوّية في وسط العاصمة فوضعتها في مراصد الأحوال الجوية في منطقة تمتدّ الف ميل . والغرض منها الفوز بالحقائق الهامة بمقدار هذه الاشعة . فتضاف الى ما يعرف بأساليب أخرى عن الاحوال الجوية

وهذا يتيح للمصلحة أن تصف الاحوال الجوية في الايام التالية وصفاً أدقّ مما كان مستطاعاً قبلاً

ذلك أن مقدار الحرارة والضوء الواصل الى الارض من الشمس يتغيّر بتغير كثافة طبقة الاوزون في أعالي الغلاف الغازي الذي يحيطُ بالأرض لأن هذا الغلاف يمتص الحرارة والضوء فاذا كان كثيفاً قلّ ما يصلنا منهما واذا كان رقيقاً زاد ما يصلنا منهما . والاوزون هو شكلٌ من أشكال الاكسجين، وكثافتهُ تزيد على كثافة الاكسجين خمسين في المائة . والاكسجين يتحوّل أوزوناً بفعل الاشعة التي فوق البنفسجي

***

وهذه الحقائق متى جُمعت وبوّبت وسهّلت أساليب استخراج مقتضياتها ، لا بدّ ان تُجني فوائد عملية في الصحة والزراعة وما أشبه

نزع اللوزتين بغير ألم أو رهبة

كانت عملية استئصال اللوزتين من العمليات التي يخشاها الصغير، إذ كان الصغير يؤخذ الى مكان غريب تنتزع ملابسه ممرضة غريبة عنه مهما تكن لطيفة بوشاً، ويخدر تحت الجلد حقنة مؤلمة للتخدير، ثم تستأصل اللوزتان فلا يشعر بألم ولكنه يستيقظ في حجرته بالمستشفى وفي حلقه ألم. وكل هذا من شأنه أن يبث الرهبة في نفس الصغير

ولكن مجلة اللانست الطبية تشير في عدد حديث من أعدادها الى انهم عمدوا في مستشفى ايردين الى طريقة جديدة تخفف من كل هذا عن نفس الصغير فيُعطى بضع ملاعق شاي من عقّار يدعى نمبوتال Nembutal وهو منوّم فلا يحتاج الصغير بعد ذلك إلاّ الى حقنة مخدّرة صغيرة وتجري العملية، فيجتنب الرعب الذي يسبق العملية، وقد جرّبت هذه الطريقة في مئتي حادثة فنجحت فيها نجاحاً باهراً وثبت انها مأمونة العاقبة ويصحّ الاعتماد عليها حتى في استئصال اللوزتين من أطفال لم يتجاوزوا سنة واحدة من العمر

وقد جرت العادة في مستشفى ايردين بادخال الطفل المستشفى في الليل السابق ليوم العملية فيعطى جرعة صغيرة من النمبوتال، ثم جرعة أكبر منها في الصباح قبيل العملية. وقد يُعهد الى الوالدة باعطاء الجرعة الاول في البيت ولا تعطى الثانية إلاّ ثلاثة أرباع الساعة قبل العملية وقد يستعمل « دلفينال سوديوم » Delvinal Sodium بدلاً من النمبوتال لأن ما يتبقى من أثره أقلّ

عنصر الفلور والحرب

« الفلور سبار » وكان معدنيّ كأنه حجر جيري مخضرّ على جانب من الشفوف وهو مألوف في أنحاء الأرض ولكن أغنى مناجمه المعروفة واقعة في منطقة بين ولايتي كنتكي وايلينوي الأميركيتين، حيث الركاز قريب من سطح الأرض

ومن معدن « الفلورسبار » يستخرج عنصر « الفلور » ومركبة « فلوريد الايدروجين » . وكلاهما من المواد التي يأبى الباحثون على وجه عام معالجتها أو تجربة التجارب بهما. فالفلور غاز مصفرّ سامّ شديد الفعل الكيميائي والالتهاب فقد قرأت قطعة خشب ألقيه اشتعلت. وهو يفعل في الزجاج ولم يصنع حتى الآن وعاء يستطيع أن يقاوم فعله الشديد. فاذا أريد استعماله وجب أن يستعمل حيث يولّد

أما مركبة فلوريد الايدروجين فاذا حُلّ بالماء أصبح الحامض

الايدروفلوريك) يحرق الجلد ولا يمكن نقلهُ الاّ في أوعية من رصاص . وهذا الحامض يستعمل في نقش الزجاج

ومن نحو عشرين سنة عني أحد خريجي جامعة ايلينوي بما يحوط الفلور والتعريب به من خطر . فاستهواه . ووقف نفسهُ على دراسة العنصر ومركباته . وفي سنة ١٩٣٩ أشارت مجلة « العلم » — وهي المجلة الرسمية لمجمع تقدم العلوم الاميركي — اشارة خاصة الى مباحث هذا الرجل (الدكتور جوزيف سيمنز) وعدّتها أحد وجوه التقدم الكيميائي العظيمة في تلك السنة

***

وفي أواخر يوليو الماضي أعلن الدكتور سيمنز ، انهُ كشف وجهاً جديداً لم يُعهد قبلاً لاستعمال « فلوريد الايدروجين » . وهذا الاستعمال له صلة وثيقة وان كانت غير مباشرة بالمجهود الحربيّ الصناعي . فقد أثبت ان هذا المركّب وسيط Catalyst كيميائي وانهُ في الوسع استبدالهُ بحلّ « كلوريد الالومنيوم » . و « كلوريد الالومنيوم » كان لا يستغنى عنهُ في صناعة المطاط وبنزين الطائرات ومصنوعات شتى غيرها . فإحلال « فلوريد الايدروجين » محلّ « كلوريد الالومنيوم » يوفر مقادير كبيرة من الكلور والالومنيوم وهما من المواد الحربية اللازمة

ان « كلوريد الالومنيوم » يستعمل وسيطاً في تركيب مادة « ستيرين » وهي أساسية في صناعة المطاط الصناعي المعروف باسم « بوتادين » . ثم هو يستعمل وسيطاً في صناعة تكرير مشتقات النفط . فتوفير « كلوريد الالومنيوم » على هذا الوجه اضافة علمية عظيمة الشأن من الناحيتين الصناعية والحربية . و« فلوريد الايدروجين » لا يحلّ محل كلوريد الالومنيوم وحسب ولكنهُ متفوقة في بعض النواحي

اهناك سيار عاشر

السيار او حول الشمس تسعة اذا استثنينا النيازك وهي التي حسب قربها من الشمس عطارد فالزهرة فالارض فالمريخ فالمشتري فزحل فأورانوس فنبتون فبلوطو . وقد كشف بلوطو سنة ١٩٣٠ . ولكنّ الدكتور روبرت رتشردسن احد علماء مرصد جبل ولسن يقول إنه من المحتمل وجود سيار عاشر . ومردُّ قوله هذا إلى ان المذنب المشهور باسم مذنب هالي تأخر ثلاثة أيام عن موعده في مكان ما في رحاب الفضاء فعمد رتشردسن الى الحساب الرياضي الدقيق وقال ان وجود سيار عاشر كتلته مثل كتلة بلوطو تقريباً وأقرب قليلاً الى الشمس من بلوطو ، كافٍ لإحداث التأخير في المذنب هالي

ولسنا نعلم بلغ ما يعلق بقول الدكتور رتشردسن من شأن علميّ الآن . ولكننا نذكر ان نبتون وبلوطو ، كشفا بالحساب الرياضي قبل ان يكشفا بالمراقب

بكتيريا تولد الفيتامين

كانت الكتب المذورة في سنة ١٩٤٠ عن انواع الفيتامين تقول ان جسم الانسان لا يستطيع ان يولدها بل عليه أن يتناولها في ما يأكله أو يشربه. ولكن بعض البحوث العلمية الطبية التي ترجع الى سنة ١٩٣٩ كانت تحوي اشارات قليلة الى أن بعض انواع البكتيريا في احشاء طائفة من الحيوانات — وربما في جسم الانسان — تستطيع على الارجح تركيب الفيتامين

وقد أثبتت البحوث الكيميائية الحيوية في معامل البحث ان اصنافاً من البكتيريا تستطيع ان تولد من موادّ كيميائية معيّنة، ضروباً من الفيتامين

فتحليل المواد التي في معد البقر والضأن أسفرت عن ان فيها بكتيريا تستطيع ان تركب مقادير غير يسيرة من الفيتامين. وأغرب من هذا ان جراثيم الدوسنتريا والدفتيريا تركب قليلاً من الثيامين وهو الاسم المقبول الآن لفيتامين ب (١). ثم ظهر ان جرذاناً نزع من معاها مركبات الفيتامين التي يشملها حرف ب (ف) فبدت عليها اعراض سوء التغذية ثم زالت هذه الاعراض فجأة. فبدا للباحثين ان التفسير الوحيد المقبول لهذا التحول انما هو تعرض وجود احياء دقيقة في المعى وتولدت مواد فيتامينية لمواجهة الحالة الطارئة

وفي أعمال الاكاديمية القومية للعلوم الصادرة في يوليو للماضي وصف العالمان الدكتور بول بركولدر وايلدا مكاثي — وهما من الباحثين في معهد البحث النباتي بجامعة ييل — تجاوب تشير الى ان البكتيريا قد تكون مصدراً عظيم الشأن للفيتامينات

فقد أخذا عينة من اصناف البكتيريا المعدية المألوفة واستنباتاها في طائفتين من المستنبتات حرارة احداها درجتان بالميزان المئوي وحرارة الثانية ٣٦ درجة مئوية وبعد انقضاء يومين تبيّنا ان البكتيريا التي في الطائفة الثانية من المستنبتات ركّبت مقادير متفاوتة من اربعة فيتامينات مشهورة هذا الريبوفلافين والثيامين والحمض النيكوتيني. وهذه البكتيريا ركبت من هذه الفيتامينات مقادير تفوق المقادير التي تحتاج اليها. وكان أعلى معدّل التركيب في الساعات الاولى من تكاثر البكتيريا

قشر البرتقال وفيتامين ث

جاء في مجلة بابتشر ان خبراء التغذية كشفوا قبل سبع سنوات ان مقدار فيتامين ث (الحمض الاسوربيك) في قشر البرتقال أعظم منه في عصيره، وان الباحثين الدكتور لامبت Lampitt وبايكر Baker حققا صدق هذا القول بالتجربة

النجم « كانوبوس » سهيل وضياؤه

عُني الدكتور جرينشتاين أحد مدرسي الفلك في جامعة شيكاغو بقياس ضياء النجم المشهور عند العرب باسم سهيل فاذا هو يفوق ضياء الشمس ٢٥٠٠ ضعف . واشراق سهيل يأتي في المقام التالي لاشراق الشعرى بين النجوم الثابتة ولكن رؤيته متعذرة في مكان الى الشمال من خط العرض الشمالي ٣٥ وهو يوافق تقريباً خط عرض اسيوط . ويذهب هذا الباحث الى ان عناصر سهيل — ما عدا الايدروجين — تشبهُ في طبيعتها ومقاديرها النسبية عناصر الارض . اما مقدار الايدروجين في سهيل فأكبر منهُ في الارض . ويقدر ان جوَّ سهيل قريب جدًّا من الفراغ ولطفهُ بالقياس الى هواء الارض يبلغ جزءًا من مائة الف جزء

ذكرى نيوتن

وُلِد اسحق نيوتن يوم عيد الميلاد (٢٥ دسمبر) سنة ١٦٤٢ . ففي ٢٥ دسمبر المقبل تنقضي ثلاثة قرون على ولادة هذا العالم العظيم الذي يمثل مع شكسبير النهضة العقلية البريطانية أصدق تمثيل وأتمهُ . وقد رؤت مجلة « أخبار الشهر العلمية » M.S.N. ان الجمعية الملكية البريطانية ، وهي مدينة بكثير من شهرتها ومنزلتها العلمية العالية الى نيوتن ، ستحتفل بهذه الذكرى . فيلقي الاستاذ اندراد محاضرة موضوعها « نيوتن وعلم عصره » . ويلقي لورد رالبه محاضرة موضوعها « تأثير نيوتن في العلم التجريبي » . ويلقي السر جيمز جينز محاضرة ثالثة يعالج فيها بحوث نيوتن وصلتها بالعلم في هذا العصر

قوة خرطوم الفيل

يروي الباحث فرانك لاين في كتابه « مشاهد الطبيعة » ان في خرطوم الفيل نحو أربعين الف عضلة فالخرطوم أقوى عضو واحد بين أعضاء الاحياء جميعاً . وبه يستطيع الفيل أن يرفع حملاً وزنهُ مئة تقريباً أو أن يقذف وحلاً مسافة أربعين ذراعاً وهناك روايتان مثبتتان عن استخدام الفيل بقطار وقد حدثت الحادثة الاولى في سنة ١٩٠٦ على سكة حديد سيام إذ هجم فيل نافرٌ على قطار شحن منطلق فأخرج القاطرة وبضع مركبات عن الخط وقلبها فقتل رجلان وقتل الفيل في الحال ودفن تحت أنقاض القطار

تقدم العلم ومضامير العلماء

لعوض جندي

١ — الاشعة الكونية المولدة

ينجح العلماء من حين الى آخر في كشف مناطق علمية مجهولة ، اتجاهاً يجعل الباحثين يقفون على عجائب طريفة ذات منافع غير محدودة للجنس البشري . وقد تبلغ الحضارة الحالية بأسرها شأواً بعيداً حينما تصبح الأشعة الصناعية التي يستطاع توليدها ذات قوة تكاد تبلغها في الأشعة الكونية الخفية التي تنبعث من الشمس ، خاضعة لسيطرة العلماء . وليس هذا الزمن بعيداً جداً ، إذ بدأ العمل في آلة تستطيع أن تقذف من الكهيربات ، ما تصل طاقتها الى مائة مليون فولط

وهذه القوة على قول العلماء أقرب ما تكون الى قوة الأشعة الكونية . وحينئذٍ يمكن انتاج نباتات غريبة وذلك بقذف أشجار الفواكه وشجيرات الفراولة وما يشبهها وتفاوي الخضراوات بالأشعة السينية التي تبلغ قوتها مليون فولط . والغرض الذي يرمي اليه أولئك العلماء هو تغيير كروموسومات (صبغيات) الخلايا الحية في الفواكه والخضر بغية تغيير ألوانها وأحجامها وطعومها وصفاتها ودرجة مقاومتها للآفات الزراعية وغير ذلك من الميزات

٢ — توليد أصناف جديدة من النبات

وهذا يحقق رأي الباحثة الفرنسي جورج تريفو Georges Truffaut الذي نشرته مجلة العلم العام الاميركية في جزئها الصادر في أغسطس سنة ١٩٣٥ وهو : — رأى مسيو جورج تريفو الباحثة الفرنسي أن الكهربائية سوف تستخدم في البساتين لتعجيل نمو الفاكهة . وقد جرّب هذه الطريقة إذ جاء بدارية قوتها ٤٠ فولطاً فأوصل أسلاكها الى الأشجار النابتة من البذور ، فتبين انها تنمو نمواً عاجلاً وذلك حينما ينطلق التيار في سوقها وأغصانها من أعلى الى أدنى . فاذا انعكس وجرى من أعلى الى أسفل ، أعاق نمو الشجرة . وترى هذا المخترع أيضاً انه يتاح التفريق الذي عينها اذا جهزت الأشجار المثمرة الكاملة النمو بأطواق معدنية توصل بمصدر صالح لتوليد تيار كهربائي مستمر . وبتلك الوسيلة يتيسر للزارع ارجاء نضج الفاكهة وقاية لها من آفات الصقيع الذي يحدث في غير زمنه . وكذلك تعجيل نضجها اذا كانت الأحوال الجوية ملائمة لها . وتأييداً لهذا الرأي يقول تريفو ان التيار الكهربائي المستمر يغير معدّل سير العصارة النباتية — لبن النبات — في الشجر

٣ — مخاليط فلزية جديدة

ثم ان عجز المستخرج من المعادن عن سد حاجات الملاّ قد اضطرّ العلماء الى التنقيب عن المواد التي يمكن ان تقوم مقامها . وفي ميدان المخاليط المعدنية المقاومة للحرارة يدور البحث في التركيبات التي تحتاج الى أقل قدر من النيكل اذ انهُ من المعادن التي تشتد الحاجة اليها في الصناعات الحربية . وقد تمّ اختراع مخاليط جديدة من الالومينيوم والنحاس الاحمر والزنك

٤ — تدفئة الملابس بالكهربية

ولما كانت تدفئة الطيارين المحاربين عند تحليقهم في طبقات الفضاء ، من أوجب الواجبات ، أسفرت المباحث التي أجريت في هذا الصدد عن اختراع ملابس للطيران تدفأ بالكهربائية لاجل طياري اميركا . ولا يبعد ان تلبس جميعاً بعد بضع سنين ثياباً مدفأة بهذه الطريقة . وذلك بدل الاشعرة الثقيلة المألوفة وعوض الحلل الصوفية السخينة والمعاطف الضخمة ، فيتاح لنا حينئذ ارتداء ثوب وحيد خفيف ليدفئنا في أشد أوقات البرد على أن تمتد في ذلك الثوب بأجمعه أسلاك كهربائية دقيقة توصل بتيار يتولد من بطارية صغيرة يحملها معهُ الراغب في التدفئة أو توصل بالجهاز الكهربائي الذي في سيارته او بالدائرة الكهربائية التي في داره أو مكتب عمله

وقد لبس كثيرون من الطيارين الاميركيين المحاربين هذه الملابس المدفأة بالكهربائية وهي التي اخترعت خاصة لراحتهم في درجات الحرارة التي تتفاوت بين ٦٠ تحت الصفر و٧٠ فوقه . وهي ملابس أخف كثيراً من الثياب المبطنة بجلد الغنم التي حلت محلها

٥ — قياس ارتفاع السحاب بالاشعة

ومما هو جليل بالذكر ايضاً لنفع الطيارين نفعاً عظيماً المباحث الدائرة في المعامل الكيميائية الاميركية وهي التي أفضت حديثاً الى وسيلة جديدة لقياس ارتفاع السحب عن سطح الارض في اثناء النهار . وخواها أن موريس ك . لوفر Maurice K. Laufer ولورانس ك . فوسكت Laurence K. Foskett الموظفين في مصلحة المقاييس الوطنية الاميركية قد كشفا أن الضوء الذي يتولد من مصباح زئبقي صغير مما قوته ١٠٠٠ وط يسلط على السحاب فينتشر عند اصابته السحاب فتحس به البصاصة الكهربائية ، فيمكن تقدير ارتفاعه بطريقة المساحة التثليثية . ويؤلف جهاز توجيه الضوء في هذه الحالة من المصباح المشار اليه على ان يركز في نقطة حيث الاشعة المعكوسة عن مرآة على شكل القطع المكافىء مساحتها ٢٤ بوصة . ويكون طول نقطة اجتماع الاشعة ١٠ بوصات وحينما توجه تلك الشعاعة الضيقة الى الجو بمعدل ١١٠

ذبذبة في الثانية فتصدم السحب فتنتشر انتشاراً تكشفه البصاصة الكهربائية الموضوعة على بعد معروف من المصباح وهي مخصصة لالتقاط تلك الذبذبات تمييزاً لها من الضوء الجوي الخلفي

٦ — فوائد الرقوق الدقيقة

وفي ميدان آخر تستعمل رقوق (أفلام) رفيعة جداً من الصموغ الصناعية يؤلف بعضها من طبقات من الجزيئات يتفاوت عددها بين ١٠ طبقات و١٥ طبقة فتفيد العلم فوائد جمة إذ تستعمل تلك الرقوق التي تبلغ منتهى الدقة، في الصان النماذج بشرائح المجهر الكهربي وهو الذي تستعمل فيه الكهربيات بدل أشعة الضوء فيكبر المرئيات ٣٠٠٫٠٠٠ ضعف أو أكثر. وبذلك تفوق قوته أعظم المجاهر الضوئية بما لا يقاس. أما الرقوق التي تكون أثخن قليلاً من تلك فتنفع في دراسة مميزات الصموغ. ومثال ذلك ان أثير الاشعة التي فوق البنفسجية في الصموغ يمكن اظهاره في بضع دقائق، على حين أن الوسائل الاخرى تستغرق ساعات طويلة. وثمة فائدة أخرى مهمة لتلك الرقوق، وهي تفريق الاشعاع في الآلات البصرية وذلك بعد معالجة الرقوق بكبريتور الزئبق. وفي هاتيك الآلات يستعمل مفرِّق الاشعاع في كل حالة يحتاج فيها الى تجزئة شعاعة من النور بحيث ينعكس بعضها بمثنة أو بشرة ويوجه بقيتها الى مجراه الأصلي. وتستعمل عادة لهذه الغاية ارايا المفضضة تفضيضاً جزئياً ولكنها تفقد نحو ثلث مجموع الضياء. أما الرقوق فهي على نقيض ذلك لا يفقد منها أكثر من بضع من النور. وأدق رقوق الصموغ الراتينجية تبلغ ثخانتها $\frac{1}{100000}$ من البوصة

٧ — مبارزة الاشعة الكونية

وما من أحد يستطيع التكهن بمبلغ نفع الجهاز المولد للاشعة الكونية الذي اخترعه الدكتور دونالد و. كرست Donald W. Kerst وكل ما يعرف بشأنه انه حتى الآن قد عاد على الناس بمنافع كثيرة وذلك لأنه تستطيع توليد خمس الطاقة التي تتوافر للعلماء الذين يستخدمون الجهاز المولد لطاقة ١٠٠ مليون ڤولط وهو الجهاز الباري صنعه في المعمل الخاص بالمباحث الكيميائية لشركة الكهربائية العامة الاميركية. أما الآلة التي أصغر من ذلك وهي التي سماها الدكتور كرست بيتاترون Betatron فهي تعجل مسير الكهربيات (أصغر الدقائق المشحونة بكهرباء سلبية) الى أقصى سرعة بلغها أي جهاز اتيح للانسان صنعه الى اليوم إذ هي تمد تلك الجزيئات بطاقة تساوي ٢٠ مليون ڤولط ثم تولد أشعة سينية بهذا الجهد. ومغنطيس الآلة الحالية القائمة الآن في جامعة ايلينوي طوله خمس أقدام وارتفاعه ثلاث أقدام وعرضه قدمان فهو اذن صغير جداً عند مقابلته بالأجهزة المستعملة في الآلة الضخمة

النافذة التي سبق ان استعملت لتعجيل الكهيربات

وقلب البيتاترون صمام زجاجي مفرغ من الهواء كروي الشكل تقريباً موضوع بين قطبين مغنطيسين كهربائيين وتقذف الكهيربات من فتيل ساخن في باطن ذلك الصمام حول جدرانه ويعجل قذفها قذفاً مستمراً بقوات مغنطيسية كهربائية حتى تكاد تبلغ سرعة ١٨٦٠٠٠ ميلاً في الثانية أي سرعة الضوء ويوجه المغنطيس الكهيربات حتى تصدم بهدف معد لذلك فينجم عن اصطدامها توليد أشعة سينية تبلغ شدتها مبلغ اشعة غما التي تصدر من شعاعة مساوية لها من أكثر من ١٠٠ غرام من الراديوم اي أكثر مما يوجد من الراديوم في العالم أجمع

ويتسنى تقدير هذه الطاقة بقوة الكهرب الهوائي الذي تحدثه

وقد تمكنت هذه الآلة الصغيرة من توليد أشعة جعلت النحاس الاحمر مشعّاً اي يصدر أشعة كالراديوم اي إنها اكسبته خصائص الاشعاع أمداً قصيراً ، وبذلك جانب اكتساب الكهيربات سرعة كافية لاختراق لوح من الالومنيوم سُمكه بوصة . ويعتقد انا ان طاقة تيار جهاز البيتاترون تتيسر زيادتها زيادة غير محدودة . ومن ثمة اتخذ علماء شركة الكهرباء العامة الامريكية قرارهم الخاص بصنع آلة أكبر من هذه ينتظر أن تولد طاقة معادلة لمائة مليون فولط لاجل الكهيربات التي تدور في مدارها المفرغ من الهواء بسرعة تجبر الذهول

هل تعلم

* ان عالماً بريطانياً بالظواهر الجوية كان يزور معارض الصور ليحكم في صدق صور الغيم او البرق او قوس قزح ودقتها ؟

* ان طالباً هندياً من المتوفرين على العلوم الطبيعية قضى سنتين في جامعة كاليفورنيا ليأخذ عن علمائها الاساليب اللازمة لبناء ميكوترون (جهاز رحوي) في جامعة كلكتة ؟

* ان خبراء المنسوجات يقولون ان القطن يفوق جميع الالياف الطبيعية لصناعة

* ان مستوى سطح الماء في المحيط الهادي أمام ساحل كاليفورنيا يزيد ست بوصات في الخريف عنه في الربيع ؟

* ان مقدار الصوف الذي كان يجز من خروف واحد في الولايات المتحدة كان يزن رطلين قبل مائة سنة وانه يزن ثمانية أرطال الآن ، على المعدل ؟

* ان ثلاثة آلاف فار حربي امتحنت في اثناء الحرب العالمية الاولى وان ٢٠ فاراً الى ٣٠ فاراً منها استعملت لا غير؟

مكتبة المقتطف

محمد علي

تأليف الاستاذ كريم ثابت — صفحاته ٣٣١ — طبع بمطبعة المعارف — ثمنه ٥٠ قرشاً

لا ريب في ان الاستاذ كريم ثابت يستحق أطيب التهنئة وأوفر الثناء على توفيقه في اخراج هذا الكتاب في أسلوب علمي لا ينهض إلاَّ للاخصائيين من المؤرخين ينفقون السنين الطوال والجهود العنيفة في المكتبات ودور المحفوظات . والذين يعرفون هذا الصعاب الناجح ويدركون ما تتطلبهُ أعمالهُ من مقابلات وأبحاث وقراءات ودراسات في المسائل الخارجية والداخلية يعجبون كيف أتيح له أن يظفر بالوقت اللازم ليصيب هذا النجاح الكبير في الكتابة عن مؤسس مصر الحديثة

والحق ان هذا السفر الجديد من طراز نادر في لغتنا العربية فاننا اذا استثنينا بعض ما كتب عن النبي عليه السلام ، لا نجد في لغة الضاد سيراً لأبطال التاريخ تجمع بين جمال العرض ودقة البحث ما نراه في مؤلفات بعض كتّاب الغرب في سير العظماء وما يظهر واضحاً في الكتاب الذي نحن بصدده الآن

ولعلَّ أكبر مزية لهذا الكتاب اعتماد المؤلف على التقارير التي كان القناصل الأجانب يرسلونها الى دولهم في عصر محمد علي والتي عنيت بنشرها الجمعية الجغرافية الملكية برعاية المغفور له الملك فؤاد الاول فان اتصالهم بمحمد علي وحرصهم على ابلاغ دولهم ما يحدث في مصر وما يدور بينهم وبين أمير البلاد — كل ذلك جعل تلك التقارير خير مصدر لتاريخ محمد علي

وفضلاً عن ذلك كله فان سعة اطلاع الاستاذ كريم تتجلى في إلمامه بوجهات النظر المختلفة وبالروايات المتنوّعة للحوادث ذات الشأن وتشهد بأنه أفاد بكل ما كتب بالفرنسية والانكليزية والعربية عن محمد علي

على ان هذا الكتاب الغني بالبيانات التاريخية يمتاز بالعرض الواضح والأسلوب السليم والبعد عن الغثّ والوقوف عند الكليات مع الالمام بالجزئيات مما يشعر بأن المؤلف يملك ناصية الموضوع ويختار من مادته الغزيرة ما يعطي القارىء صورة صادقة لمحمد علي

***

ولم يقف المؤلف عند سرد الحوادث بل عني بتحليلها والربط بين أسبابها ونتائجها ثم استنباط الحقائق التاريخية منها فجاء في الباب الاول والثاني من الكتاب يدرس نشأة محمد علي وقدومه الى مصر ووصوله الى منصب الوالي ويستنبط من ذلك انه في ١٢ مايو سنة ١٨٠٥ اجلس الشعب المصري محمد علي على عرش مصر فكان اول والٍ يحكم مصر باختيار المصريين وترشيح المصريين واقرار المصريين » وعرض المؤلف اخلاق محمد علي بالمثاليك وأثبت انه كان معيناً في شكوكه ولن سلامته وسلامة البلاد هما الثان تعنتا عليه بالتخلص منهم ، فذبح القلعة ليست نقطة سوداء في تاريخ محمد علي كما يقول بعض المؤرخين الغربيين

اما الباب الثالث فمعقود لحروب محمد علي في الحجاز والسودان ولاصلاحاته الداخلية رغم هذه الحروب . فالعناية بالزراعة ولاسيما زراعة القطن وحفر الترعة المحمودية والغاء نظام الالتزام وتوزيع الاراضي على الفلاحين ونظام الشورى والعناية بالامن الداخلي وتحسين العلاقة بالدول الاجنبية ونجاح الامير في حفظ التوازن في صداقته لفرنسا وانكلترا جميع هذه الحسنات التي تذكر بالخير والثناء لمؤسس مصر « العبقري الذي لم يعرف للتعب معنى » شرحها المؤلف فأظهر كيف ان محمد علي هو الذي شرع منذ سنة ١٨١٧ في بناء صرح مصر الاقتصادي وانه لم يكن يسمح للاجانب بأن يستغلوا امتيازات الأجنبية التي كانت تئن تحت عبئها الدولة العثمانية وممتلكاتها

والباب الرابع فيه حديث الجيش وتدريبه على فنون الحرب الحديثة واعتماده على الفلاحين في تكوينه وانشاء المدارس وارسال البعثات والاستعانة بالضباط الفرنسيين لتدريبه

وفي الباب الخامس حديث حرب الثورة وما جنته مصر من ربح سياسي فيما حين أصبحت الدول الاوربية تفاوض محمد علي رأساً . وقد نجح المؤلف في اماطة اللثام عن حقيقة العلاقات بين محمد علي وانكلترا فقد كان الشائع انها كانت دائماً تناصبه العداء وانه كان يعتمد على فرنسا ولكن الذي يقرأ كتاب الاستاذ كريم وعرضه للعلاقة بين الباشا وهاتين الدولتين يعرف ان هذا القول لم يكن صحيحاً في بعض الأحيان

وفي الباب السادس حديث الحملة التي اقترحتها فرنسا على محمد علي في مورة وتونس

والجزائر . وقد رأى محمد علي ان يشهر حرباً خاطفة كالحرب الحديثة ولكنه رفض ان يتعاون مع فرنسا في فتح شمال افريقيا وأصرَّ على أن يكون له وحده النهوض بهذه المهمة ليكون لها الطابع الاسلامي وليمتنع عن التعاون مع دولة أجنبية في حرب تسلبها على المسلمين . فقد كان محمد علي يسعى للاستيلاء على البلدان الاسلامية التي تطمع فيها الدول الاوربية لينقذها ويجدد شبابها وينشر فيها مجد الاسلام

وفي البابين السابع والثامن عرض دقيق للنزاع بين الباشا والباب العالي شرح فيه المؤلف أغراض محمد علي من حرب سوريا وتوغل ابراهيم باشا في أملاك السلطان الى كوتاهية وأماط اللثام عن تفكير محمد علي في نقل الخلافة الى مصر كما فعل السلطان المملوكي بيبرس من قبله وكما اراد ابن طولون من قبلهما وأظهر انه فكر كذلك في تأليف شبه اتحاد عربي تتزعمه مصر وينفصل عن تركيا . والحق ان ما جمعهُ الاستاذ كريم من أحاديث محمد علي تشهد ببراعة الباشا في العمل على كسب تأييد الدول وإتقانه الدعاية لأغراضه على النحو الذي نعرفه بين الدول المتحاربة الآن

ولكن الدول كانت ترعى نفعها الشخصي وحده وكانت ترفض أن ترى محمد علي يجدّد شباب الدولة العلية ويقضي « الرجل المريض » فلا عجب اذا جمعت كلمتها وأيدت الباب العالي وأرغمت محمد علي على رغم انتصاراته على أن يقنع بالحكم في مصر

***

وقد ختم المؤلف أبواب الكتاب بالكلام على الاصلاحات التي أتمها محمد علي في أربعين سنة . وحسبنا أن نذكر في هذا الصدد قول الباشا نفسهُ « اني أرجو أن تنصفني الاجيال المقبلة كما أنصفت بطرس الاكبر قيصر الروس بعد ما كان شعبه يئن منه في أثناء حياته » أجل فقد وضع محمد علي أساس كل شيء في مصر الحديثة كما فعل من قبلهِ بطرس الأكبر في روسيا

وفي ملاحق الكتاب صور من معاهدة لندن ومذكرات الدول الى الباب العالي بشأن استقلال محمد علي وفرمان السلطان الى الباشا

وخلاصة القول ان هذا الكتاب جليل بموضوعهِ عظيم بجهود المؤلف وتوفيقهِ في اخراجهِ فحسبي أن يكون فاتحة لغيره من تراجم عظماء التاريخ المصري

الدكتور زكي محمد حسن

الاستاذ المساعد بجامعة فؤاد الاول

« تاريخ خليج الاسكندرية القديم وترعة المحمودية »

لحضرة صاحب السمو الامير عمر طوسون عناية مشكورة بتاريخ نهضة مصر الحديثة في الشؤون العمرانية والسياسية والاقتصادية والعلمية والعسكرية على عهد محمد علي باشا. وله في هذا التاريخ مؤلفات جليلة وبحوث هامة تناولت الجيش المصري والبعثات العلمية وفتح السودان وسوى ذلك من المآثر المحمدية الباقية على البلاد. وسموه في كل ما كتب وما يكتب مؤرخ مدقق وعالم محقق واسع الاطلاع حائز الجرأة صادق النظر يتخير الوثيق من المصادر والصحيح من المراجع ويعبر بمثله الرجيح بين غث الوقائع وسمينها ويفاضل بدقة النزيه بين أصيل الآراء وزائفها

ومن مصنفات سموه كتابه في « تاريخ النيل » وقد ألفه باللغة الفرنسية وطبعه المجمع العلمي في سنة ١٩٢٥ وفي جملة ما ضمّ بين دفتيه فصول في « تاريخ خليج الاسكندرية القديم وترعة المحمودية » فحرصاً منه على نفع أبناء البلاد رأى نقل هذه الفصول الى اللغة العربية وأصدرها سفراً خاصاً تفضل فأهدى الى المقتطف نسخة منه وهو سفر يقع في ١٥٢ صفحة من القطع الكبير وقد طبع طبعاً جيداً كسائر مؤلفات الامير. وانما عنى بذلك لأن هذه الفصول كما قال سموه في مقدمتها « تتعلق بتاريخ مرفق عظيم من مرافق البلاد الحيوية »

وفي مفتتح هذا التاريخ « لمحة عامة » عن فروع النيل السبعة الأولى وأخصها الفرع الكانوبي ووصف مجراه من مبتدأه الى منتهاه أو من مصدره الى مصبه. واستطرد من ذلك الى « تاريخ خليج الاسكندرية » او ترعتها القديمة وما طرأ عليها من وجوه التقلب خلال الاجيال وما بقيت عند الفتح العربي. وهنا خالف سمو الامير رأي القائلين ان كليوبطرا هي التي أنشأت الترعة وأوعز عهدها الى الاسكندر الاكبر لكي يجعلها مورداً لاسقاء أهل المدينة الجديدة التي أسسها « الاسكندرية ». وناقش سموه في سياق حديثه آراء أخرى وصحح ما رآه منها بحاجة الى تصحيح

ثم وقف الامير معظم الفصول على ترعة المحمودية وهي التي شقها محمد علي باشا في سنة ١٨١٨م. ونقل ما كتبه عنها المسيو كوست مهندس الترعة والمسيو ماجان فاضل فرنسا العام وليان باشا وزير الاشغال آنئذ وما جاء في وثائق دار المحفوظات ومذكرات لنجيرتي وكفرت بك وعلي باشا مبارك وألحق بها خارطات تبين مواقع الترعة في عصور شتى. وبالجملة فان هذه الفصول تعد مرجعاً تاريخياً صادقاً للذين يحبون الوقوف على حقائق هذا الموضوع

والمقتطف يرفع الى مقام الامير العالم أصدق شعائر الولاء وأطيب عبارات الثناء على ما يتحف به المكتبة العربية من آن لآن من مؤلفاته عن تاريخ هذا العصر الذهبي الذي بدأت مصر تستمتع ببركاته من يوم أن ولي أمرها محمد علي وما برحت تنعم به على أيدي خلفائه الى اليوم

موكب الحياة

هدية المقتطف السنوية — مجموعة من القصص — ٣٦٢ صفحة من قطع المجلة

للفن القصصي الآن مكان ملحوظ في آداب العالم جميعاً ، ولقد خطا هذا الفن في أدبنا العربي الحديث خطوات فسيحة ، واجتذب اليه أنصاراً وعشاقاً فساق باقي فنون الأدب الأخرى من هذا القبيل . وكانت لمجلة المقتطف — رغم عنايتها الأولى بالبحوث العلمية — عناية بهذا الفن ، إذ هي اليوم أول مجلة عربية كبيرة تتقدم الى قرائها بمجموعة من آيات هذا الفن ، كما كانت هي المجلة العربية الأولى في الشرق التي أرصدت جائزة مالية لتشجيع هذا اللون الجديد في الأدب ، اذ أعلنت في سنة ١٩٢٥ عن جائزة قدرها خمسون جنيهاً وكانت لجنة التحكيم فيها من خيرة رجال الفكر في مصر ، كما عنيت الى جانب ذلك بنقل روائع هذا الفن من الآداب العالمية الى اللغة العربية

وفي هذا العام فكرت هذه المجلة في أن تكون هديتها الى قرائها مجموعة تضم كثيراً مما نشر في مجلداتها السابقة من القصص العالمية مترجمة في أسلوب بديع الى جانب طائفة ممتازة من القصص الموضوعة بأقلام أبرز كتّاب القصة في الأدب العربي . وقد نشرت القصص الموضوعة بحسب تواريخ نشرها أولاً في المقتطف ، ومن ذلك يتجلى للباحث في تاريخ القصة العربية نواحٍ من تطوّرها خلال هذه السنوات

وقد قدم لهذه المجموعة الخاص الكبير الأستاذ محمود تيمور بك بهذه الكلمة :

« عرف عصرنا الحديث فيما عرف من جديد الثقافة والأدب فنّ القصة ، وطمح إلى أن يأخذ نصيبه من هذا الفن بعد أن أدرك ما لهُ من خطر . وقد توصل إلى بلوغ تلك الغاية بالاغتراف مما خلفته الآداب العالمية من أقاصيص وروايات . ولذلك بدأت مرحلتنا القصصية بالترجمة . وكثيرٌ من الفضل يرجع الى الصحافة الأدبية اذ فسحت للقصة والرواية مكاناً مرعيّ الجانب ، أغرت بطلاوته أعين القرّاء ، وقرّبته زاداً طيباً للطلاّب . وما هي إلاّ أن وُلدت القصة المؤلفة في الأدب العربيّ المعاصر ، وظهرت ناشئة القصّاص . ثم جرت على القصة الوليدة سنّة النشوء وحكم التطوّر ، فإذا هي حيناً محاكاة محضة ، وتارةً محاولة للتحرّر والاستقلال

« وظلت كذلك حتى تهيّأ لها كتّابٌ قادرون تسامَوا بها درجات فأصبحت أهلاً للتقدير والاعتداد ، وانبثقت نبعاً صافياً إلى جانب ينابيع الأدب الأخرى تستقي منه الصحف الأدبية ويرتوي به قرّاؤها

« ولقد كان « المقتطف » في طليعة صحفنا التي بشرت بالقصة المترجمة أولاً ، ورحبت بالقصة المؤلفة أخيراً . فهو — فوق صبغته العلمية — أوّلي جانب الأدب ، ولا سيما أدب

القصة، رعايةً ملحوظة . إذ كان يقدّم لروّاده ثمرات وزهرات يحسن انتقاءها أصيلة النبت، ويجيد عرضها زكية العطر . والآن وقد تمرّق منها في أجزاء السنين الخالية طائفة كثيرة ، عنّ له أن يؤلف من بينها طاقة مختلفة الألوان متباينة العبق ، بيد أنه في عرضها تمثّل ضابطاً واحداً هو طابع الفكر الإنساني الذي يعالج تصوير النفس البشرية في « موكب الحياة » ...

« وخيراً فعل « المقتطف » بتحقيق تلك الفكرة ، فهي تيسر للقارىء العابر متاعاً وصواة ، وتتيح للأديب المتطلع فرصة التعرّف على مائدة واحدة إلى صفوة مذاهب التأليف القصصيّ في أمم شتى . فهذه القصص نماذج مختارة من الأدب العالميّ الرفيع جديرة أن تتبوّأ مكانتها من المكتبة العربية

« ولعلّ « المقتطف » حين أفرد قسماً لنخبة من القصص العربية الحديثة ، شاء تقريب الموازنة بينها وبين القصة العالمية على وجه ملحوظ . ولا مرية أنها على اختلاف كُتّابها وتشعّب نزعاتها ترسم على جهة التقريب منحى الكتّاب العرب في ممارسة القصة اليوم » اه

وسيجد القراء في هذه المجموعة الطريفة التي ضمت ٢٤ قصة غربية و ١٤ قصة عربية ، ألواناً مختلفة وصوراً متباينة من صور الحياة ، وستكون سبيلاً للترفيه عن أنفسهم في زمن اشتدت فيه المحن وفقدت فيه النفوس الراحة والهدوء »

الصيرفي

المفضليات

الجزء الاول بتحقيق وشرح الاستاذين احمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، ٢٠٠ صفحة من قطع المقتطف — طبعته ونشرته مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر — الثمن ١٥ قرشاً صاغاً

لفضيلة الاستاذ الشيخ احمد محمد شاكر أيادٍ بيض على المكتبة العربية مما ينشره على الناس من ذخائر نفيسة يجلوها لهم في أحسن ثوب وأدق صورة وأصحّ عرض . وكان من آخر جهوده في هذا المضمار كتابان نفيسان عمل على إبرازهما بطريقته المثلى ، هما كتاب « المعرّب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم » لأبي منصور الجواليقي ، والجزء الاول من كتاب « المفضليات » للمفضّل الضبي ، وليس هذا الجزء الا الحلقة الاولى من سلسلة نفيسة من كتب الاختيار لعيون الشعر العربي الرصين يعمل الاستاذ شاكر على إخراجها بمعونة الاستاذ عبد السلام محمد هارون زميل كتبه . وهي المفضليات والاصمعيات وجمهرة أشعار العرب ومختارات ابن الشجري ، وقد بذل الاستاذان الفاضلان في نشر المفضليات مجهوداً مشكوراً في تحقيق أجود الاقوال وأصحها وأنقاها لفظاً وأبلغها عبارة مما نقل ابو محمد الانباري في شرحه اياها عن الائمة من شيوخه وغيره ، واختيار ذلك في النشر مع الحرص في هذا على إثبات لفظه محافظة على قيمته التاريخية الا أن يكون ما قاله خطأ فيتجاوزانه الى الصواب

أو مقصراً فيلجأ ان الى البيان وايضاح ما يكون مهملاً شرحه ، او مجهولاً في عصرنا مما كان معروفاً في عصره . واتبعا في كل قصيدة التعريف بالشاعر تعريفاً موجزاً كافياً ثم ذكر حجم القصيدة وما قيلت فيه من أغراض ومعان وتاريخ ثم يخرجانها فيذكران ما وصل اليه علمهما من مواضع وجودها او وجود أبيات منها في الكتب الأصول المعتمدة وقد فسّرا كل بيت بشرح ما فيه من الغريب شرحاً بيناً لا إخلال ولا إطناب واذا كان في معنى البيت خفاء لا يكفي في بيانه شرح الغريب فسّرا معناه تفسيراً وسطاً

وانها لمكرمة من مكارم الاستاذين نحو الادب العربيّ فان المفضليات قيمتها الرفيعة الشأن فهي أقدم مجموعة صنعت في اختيار الشعر العربي ، ولما كانت الآراء متضاربة متباينة في نسبتها كلها الى الضبي ، فقد وضع الاستاذان مقدمة في سبع عشرة صفحة عرضا فيها لهذه الناحية عرضاً لم يسبقا اليه انتهيا فيها الى ان المفضل لم يخرج كل هذه القصائد التي شرحها الانباريّ وأن كثيراً منها ادخل في اثنائها من بعده ، ويرى الاستاذان ان أصلها السبعون قصيدة التي اختارها ابراهيم بن عبدالله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب كما روى ابو الفرج الاصبهاني في كتابه «مقاتل الطالبيين» حيث يقول المفضل فيها «صدّرت بها اختيار الذهراء ثم أتممت عليها باقي الكتاب» وانه زادها بعد عشراً حين تقدم اليه المنصور في اختيار قصائد لولي عهده المهدي فصارت ثمانين وان هذه الثمانين هي اصل الكتاب عن المفضل لم يتجاوزها ثم قرئت على الأصمعي فأقرها وزاد قصائد ، وزاد في بعض قصائدها أبياتاً واختار قصائد أخر ثم جاء بعد الاصمعي ممن زادوا في القصائد — أصلها وزيدها — أبياتاً دخلت في روايتي المفضل والاصمعي حتى اختلطت كلها

وقد ذكر الاستاذان في مقدمتهما شروح المفضليات وطبعاتها ، وترجما للمفضل ثم ذكرا المصادر التي فيها تراجم له ، وعيّنا مواضع ذلك في كل منها ، ليسهل على القارىء أن يرجع اليها

وان الادباء والمتأدبين لينتظرون هذه الطبعة الجديدة للمفضليات بما هي جديرة به من التقدير والاعجاب ، وليرحبون بديوان العرب الذي يعمل الأستاذان على اخراجه بهذه الدقة العلمية

وان واجباً على هؤلاء الادباء والمتأدبين ان يرجهوا شكرهم الى هذه الدار التي تحتضن الحياة الفكرية وتسعى الى النهوض بها ، ألا وهي « مطبعة المعارف ومكتبتها » فلقد ساهمت هذه الدار بنصيب وافر في تلك الحركة خلال نصف قرن منذ أن انشأها مؤسسها الطيب الذكر الى الآن ، فاخرجت أنفس ما تزدان به المكتبة العربية من آثار ، وهذه يدٌ مسجّلة لها في تاريخ الأدب والعلم والطباعة العربية في الشرق

حسن كامل الصيرفي

عوالي

مسرحية بالعربية الفصحى في ثلاثة فصول — ١٢٦ صفحة من القطع الوسط مطبعة الاستقامة بمصر

كانت المجموعات الثلاث التي اخرجها الاستاذ محمود تيمور بك تضم اتجاهه بتجديد نحو ترقية المسرح العربي بهذا القلم العزيز من فنّ تيمور المسرحيّ ، وها هو ذا بعد ان وضع المسرح بالعامية مسرحياته السابقة قد عاد الى اللغة العربية الفصحى يضع فيها مسرحيات جديدة ، فكانت « عوالي » تلك المسرحية الرائعة أول ما قدّم المسرح في لغة فصحى تحمل مزايا أسلوبه العالي وفنه الرفيع

وحوادث هذه الرواية منسوجة من خيال المؤلف جعل مسرحها في قطر عربي في زمن من أزمنة الدول العربية . تعالج عواطف امرأة وإحساسها أمام ألوان من الحب تحيط بها . و « عوالي » هذه فتاة من أسرة نبيلة في الشامية عشرة فقدت أبويها فعاشت في كنف صديق لأبيها هو الأمير « سنان بن أمير » وهو قائد عربي يناهز الخمسين . نرى هذا الامير جالساً يلعب الشطرنج مع « أبي كنوز الندة » الشاعر ونراه يسأل خادمهُ عن عوالي فينبئهُ انها خرجت للصيد مع « بلال » ابن أخي الامير وهو شابٌّ في زهرة العمر فيثور الامير سنان ويطلب من خادمه أن يرسل فارساً في طلبهما ونسمع حواراً بينهُ وبين الشاعر تفهم منهُ غضب الامير على « عوالي » لما تعملهُ من أعمال تخرج بها عن طبيعتها كفتاة يجب أن تلزم القصر وأن تذعن لكل ما تؤمر به ، ونحسُّ من الحديث ومن لهجة الامير انهُ رجل تملأ القوة والشدة نفسهُ وتطغى فلا تظهر بين خلالها العواطف الرقيقة ، فاذا ما عادت « عوالي » و « بلال » وجدنا هذه الفتاة تملأ الشجاعة نفسها أمام بأس الامير وقوة شكيمته بينما نجد « بلالاً » يملأ النزع نفسه من عمّه ونسمع الامير الصغير يعترف لعمّه بإعجابه بالفتاة ولكن عمه يفاجئهُ بأن هذا محال لأنه سيقدمها للخليفة ثم يدور حديث حول هذا بين بلال وعمه . الشاعر ينتهي بعزم الأمير على رأيه . ونراه يعقد مجلساً من جواريه ونشهد في هذا المجلس جانباً من جوانب اللهو يصوّر ما كان يحيا فيهِ القوم في الماضي ثم بعد ذلك تدخل « عوالي » حين ينفضُّ الجمع وتتحدث الى سنان ونسمع هذا وهو يخاطبها في أمر تزويجها فتنبئهُ بأنها هي التي ستختار عريسها وفق ذوقها

فاذا أشرفنا على الفصل الثاني رأينا قصر الأمير في حلة جديدة احتفاءً بمقدم الخليفة ورأينا « عوالي » وظلالاً وهما في بزة العبيد تتحدث اليهِ ولكنهُ شارد الذهن في أنبأه به عمه ونسمع سخريتها منه لخوفه وفزعه ونسمعه ينبئها بما بيّت عمه أمره عليهِ في شأنها فتضحك مستهزئة ويعرف منها أنها تعلم شيئاً من هذا فيعرض عليها حبه واستعداده لمصارحة الخليفة بهذا الحب تتطلب اليهِ أن لا يفعل فيخيفها عاقبة ذلك إذ لن تكون هناك إلاَّ جارية

في حين انها ستكون لديه أميرة ، فترد عليه بأنها أميرة حيث تكون ، وانها ستنظر في الأمر اذا راقها الخليفة ثم يخرجان حين يبصر عمه دلالاً ولا يلبث أن يعود اليه بعد أن يخلع ملابس الصيد ويطلب الاذن له بالانفراد به . وعند ذلك يشرح له حبه لعوالي فيرفض إذ انه سيعرضها على الخليفة ليرى رأيه فيها فتدخل حينئذٍ « عوالي » ويدور بينها وبين سنان حديث طويل ينتهي باعلان قدوم الخليفة ، وبعد أن يدور حديث قصير بين الخليفة وسنان وطلال يلمح عوالي فيسأل عنها ويرى الخليفة مهتماً بأمرها مسروراً لحديثها

ثم يستعرض الخليفة الجواري ويدور حديث حول الحب ومجنون ليلى وحقيقته وقد استطاع تيمور بك أن يدير الحديث حول هذا الموضوع ببراعة وحذق وإذ يهم الخليفة بالخروج يأمر « سناناً » بإعداد الامر لارسال عوالي الى قصره وبعد أن يخرج يدور عتاب بين طلال وعمه فلا نلبث حتى نرى طلالاً وقد خرج مهتاجاً مهدداً بأنه سينزع «عوالي» بحد السيف فيدور حوار بين سنان وعوالي تتجلى فيه خيوط العقدة المسرحية وهي تحل شيئاً فشيئاً فهاهو سنان يريد أن يعدل عن ارسال عوالي الى الخليفة فتسأله عما ذا يعتذر فلا تستطيع الاجابة فتشير عليه بأن يبلغه انها تحب طلالاً فيثور لهذا ويغضب ويعلن اليها انها لابد ذاهبة الى الخليفة فتنحني وتخرج وعند ذلك يشعر أبو خوانده الشاعر ان قلب هذا القائد تتحرك فيه العواطف المتأججة التي يحاول أن يخفيها فيقول لسنان «اقسم بالله انك تحبها» فيصخب سنان لذلك ويطلب من خادمه إستدعاء «عوالي» فينبئه انها قد خرجت مع الأمير طلال وانهما ذهبا يتنزهان في ضوء القمر فتستولي على الرجل افكار عجيبة ويختم الفصل وهو يحطم قدح الشاعر ويردد : زهة رائعة ! زهة رائعة ! رائعة جداً »

فاذا كان الفصل الثالث فنحن مع هذا القائد [illegible] الشاعر يلاعبه الشطرنج ويتحدثان في أمر « عوالي » ونعلم من حديثهما ان الخليفة بعث في طلب هذه الفتاة ولكن سناناً كان يعتذر بشتى الاعذار وتدخل عليه « عوالي » وجارية من جواريه متشابكتين فنرى هذا القائد الذي كان يظهر بمظهر البطش والقوة قد أثرت فيه العواطف التي تجد لنفسها المتنفس من قلب هذا الرجل ونراه بعد ان ينفض هذا النزاع ينطلق في حديث مع « عوالي » يتبين منه انه يحرص على أن لا يرسلها الى دار الخليفة ويذكر لها انه يفكر في أن يزوجها من طلال فتعلن له انه لا يعجبها فيذكرها بأنها اعلنت له مرة انها تحبه فترد بأنها قد غيرت رأيها فيسألها ومن هو الرجل الذي يستهويها فتقول هو الذي تتمثل فيه معاني الرجولة وان السن لا شرط لها في ذلك ثم تسأله عن رأيه في المرأة التي تروقه فيرد بأنها الطيعة التي لا تخالف له امراً فتسأله وهل تريد المسلوبة الارادة ، فقدة الشخصية فيذكر لها بأن الطاعة هينة اذا تعودتها المرأة ، فتصيح به وان لم تتعودها فاذا تصنع ؟ » فيصرخ فيها

« تتعودها مرغمة » وعند ذلك يدخل طلال بنيته ان رسول الخليفة يطلب لقاءه وانهُ يعرف لماذا قدم فيهتف بخادمه ان يدني « الرسول بأن «عوالي» مريضة وانها ستكون غداً عند الخليفة ثم يلتفت اليها ويطلب منها أن تعد نفسها لذلك فترفض وتقول له أنها تحب طلالاً وتلتفت الى طلال تعلمه بذلك وتوجه حديثها الى عمه ثانية مكررة لفظ الحب فيصفعها فيثور لذلك طلال وما يلبث ان يهجم على عمه شاهراً سيفه ولكن القائد يخلف منه سيفه خطفة ماهرة ويحمل طلالاً ثم يلقيه على الأريكة فيخرج غاضباً وهو يهدد بأنهُ ذاهب الى الخليفة يفضي اليه بكل شيء وعندما يخرج يناول سنان « عوالي » السيف ويطلب اليها أن تنتقم لنفسها منهُ ولكنه عند ما تنأهب للهجوم عليه يتقدم بصدره نحوها يعلن لها انهُ لم يفعل بها ما فعل وفيه مسكة من عقل ولكنهُ أحس نصالاً تتهاوى على قلبه فتمزقه فتقول له أكرهك أكرهك وترمي بنفسها بين أحضانه باكية ثم يتعانقان عناقاً بالغاً يغمرها فيه بالقبل ويملأ بها ويخرج بها من باب خلفي وما يكاد يتوارى حتى يكون الوزير مندوب الخليفة قد حضر وخلفه طلال ويهتف طلال بالوزير أن ينجي «عوالي» من براثن عمه فيسأل الوزير الخادم عن سيده الأمير فيجيب بأنهُ لم يره في القصر ثم يسمع وقع حوافر ينظر ثم يهتف « مولاي الأمير مع الأميرة عوالي على صهوة جواد ينهب الأرض » ويسدل الستار والوزير يأمر السياف أن يعتني بجواده في صحبة فرسانه ليقتفوا أثر سنان ثم يعودوا به. هذه هي المسرحية التي تجلت فيها مواهب تيمور والأثر الصادق هو الذي تتجمع فيه كل مواهب الفنان ومزاياه

حسن كامل الصيرفي

المصادر عن ري العراق

رأى الدكتور احمد سوسة بعد أعمال طويلة قضاها خلال سني تجاربه في دائرة الري بالعراق شديد حاجته الى وضع مؤلف يضم كافة المصادر التي تتعلق بأمور الري هناك والمراجع الفنية التي يمكن للفنيين الاستفادة منها فضلاً عن فائدة الجمهور من تتبع خلاصة المنشآت في هذا الموضوع الى وقتنا هذا، ولقد أجاد الدكتور في تصنيف مؤلفه هذا فرتبه في خمسة أقسام : — الاول يتضمن تقارير ونشرات عن شؤون الري في هذا الاقليم ، والثاني يحتوي على نشرات دائرة الري الفنية ، والثالث يشتمل على مذكرات مجلسي النواب والأعيان حول مشروعات حيوية كمشروع الكارنت ، والرابع يشتمل على مصنفات الرحالة والباحثين وغيرها من المراجع العامة ، والخامس فرق فيه الناحية التاريخية والجغرافية . ولا يسع قارىء هذا الكتاب إلا الاعتراف بفضل الدكتور المؤلف فيما بذلهُ من مجهود في ترتيب هذا الكتاب وما لهُ من سعة اطلاع. ولقد سدّ هذا المؤلف فراغاً واسعاً يشعر به الفنيون وقراء العربية . وهو مزوّد بالمراجع العربية والافرنجية ليسهل على من أراد التوسع الرجوع اليها . وفي ذيله فهرست بأسماء الاعلام

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الواحد بعد المائة

٣٣٣ العلم : بين الدكتاتورية والديمقراطية

٣٤٦ .. وتكلم الجمل (قصة ركان)

٣٤٩ الاعتبارات الانسانية : للاستاذ عبده حسن الزيات المحامي

٣٥٥ جابر بن حيان : ليوسف ...م

٣٦١ ما يشغل العلماء من مسائل العلم والصناعة

٣٦٥ غمران (قصيدة) : لعدنان مردم بك

٣٦٦ سمائم التفكير الفرنسي : لعثمان أمين

٣٧٥ حكمة المناظرة

٣٧٦ النقل الحربي في أثناء الحرب وبعدها

٣٨١ زجاجة ومداد : لزاكي الزاهي

٣٨٤ الشرق العربي وأوربا : لنقولا زيادة

٣٩١ سيبيريا ومواردها المعدنية والصناعية

٣٩٦ الشعور والزمان لا يهدآن (قصيدة) : لأديب عباسي

٣٩٧ النباتيون المكبورون وما يرمز اليهم به : لمحمود مصطفى الدمياطي

٤٠٠ فضائل الصلاة الصحية : للدكتور شوكت موفق الشطي

٤٠٥ الهيكسوس مدى توغلهم في مصر : للدكتور باهور لبيب

٤٠٨ بين عهدين (قصيدة) : لشاعر الالماني شيراوس

٤٠٩ حديقة المقتطف * تاجور في الحياة والاخلاق والمدنية والسياسة والمرأة والأدب والدين : لمحمود المنجوري

---

٤١٩ باب المراسلة والمناظرة * تراث العرب العلمي : لاحمد ابو الخضر مدني

٤٢٤ باب الاخبار العلمية * افتتاح جامعة فاروق الاول . قياس الاشعة التي فوق البنفسجي . نزع الوزنين بغير اذاية رهيبة . عنصر النور والغرب . اهناك سبعة عشر . بكتيريا تولد الكهربائية . قصر الترنتين وتجاعيد C . الشجر « كاتوبوس » سبيل وضيائه . ذكرى نيوتن . قوة خرطوم الفيل . * تقدم العلم . فاتح الملاح : الاشعة الكونية المولدة . توليد اصناف جديدة من النبات . مخاليط فلزية جديدة . تذكرة الابن الكهربية . قياس ارتفاع السحاب بالاشعة . فوائد الورق الدقيق . مولد الاشعة الكونية . لعوض جمعي . هل تعلم

٤٣٤ ريحانة المقتطف * محمد علي . تاريخ خليج الاسكندرية القديم وترعة المحمودية . موكب الحياة المفضليات . عراقي . المصادر عن ري العراق

رحلة الزمان

يمثل الزمان شيخ مجنح ممسك بمعذاف القارب –ثم امرأة تنظر الأمام فهي تمثل الرجاء (المستقبل) ثم أخرى تعزف على آلة موسيقية تمثل الطرب (الحاضر) وثالثة مسندة رأسها بذراعها تستعيد الذكريات فهي تمثل الذاكرة (الماضي)